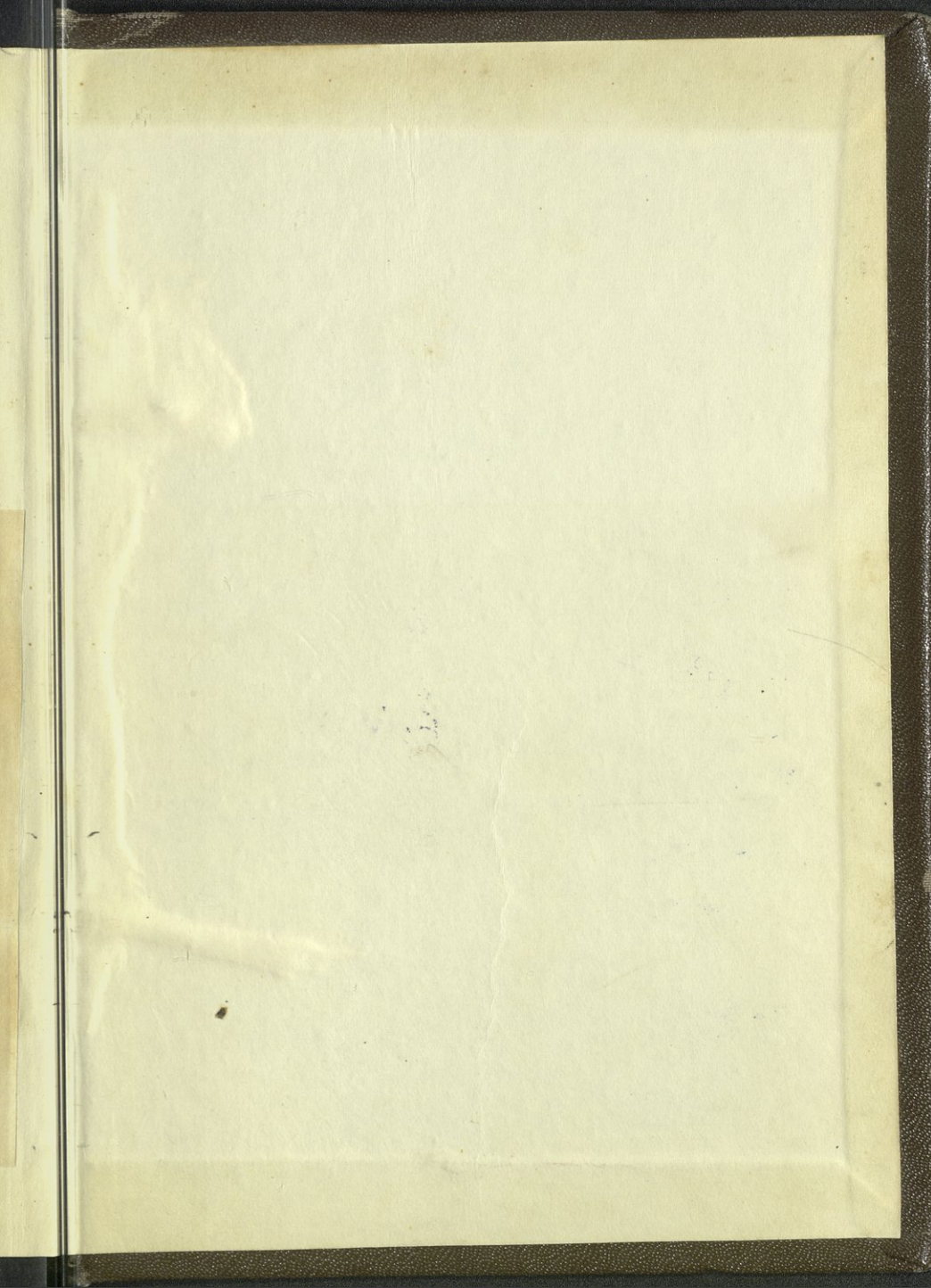


80-3178



843.08: M95g A

محرر - امير (السلطان)

843.08

M95g A

~~Jan 14 58~~

~~Feb 12 '58~~

~~Oct 1 '58~~

~~APR 26 1959~~

~~MAY 19 '60~~

~~APR 1961~~

~~MAY 5 1961~~

~~MAY 1961~~

~~Dec 68~~

~~24 Feb 70~~

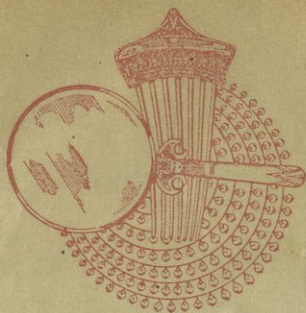
CAFET LIB

APR 1960

Cat. June 1945

843.08
M958A
C.1

احمد الصادق محمد



غانيات

100
104
100

59439



ملتزم طبعه ونشره
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

Cat. pers. 1940

☆☆☆

[illegible]

الاهـداء

غابيتانه من الاسكندرية القديمة

وغابيتانه من باريس

يجمعن على بُعد الشقة ، وطول الزمان

أمام هبكل الحب

يقدمن عنى اليها... الى الموعودة :

نوبةً وهداية

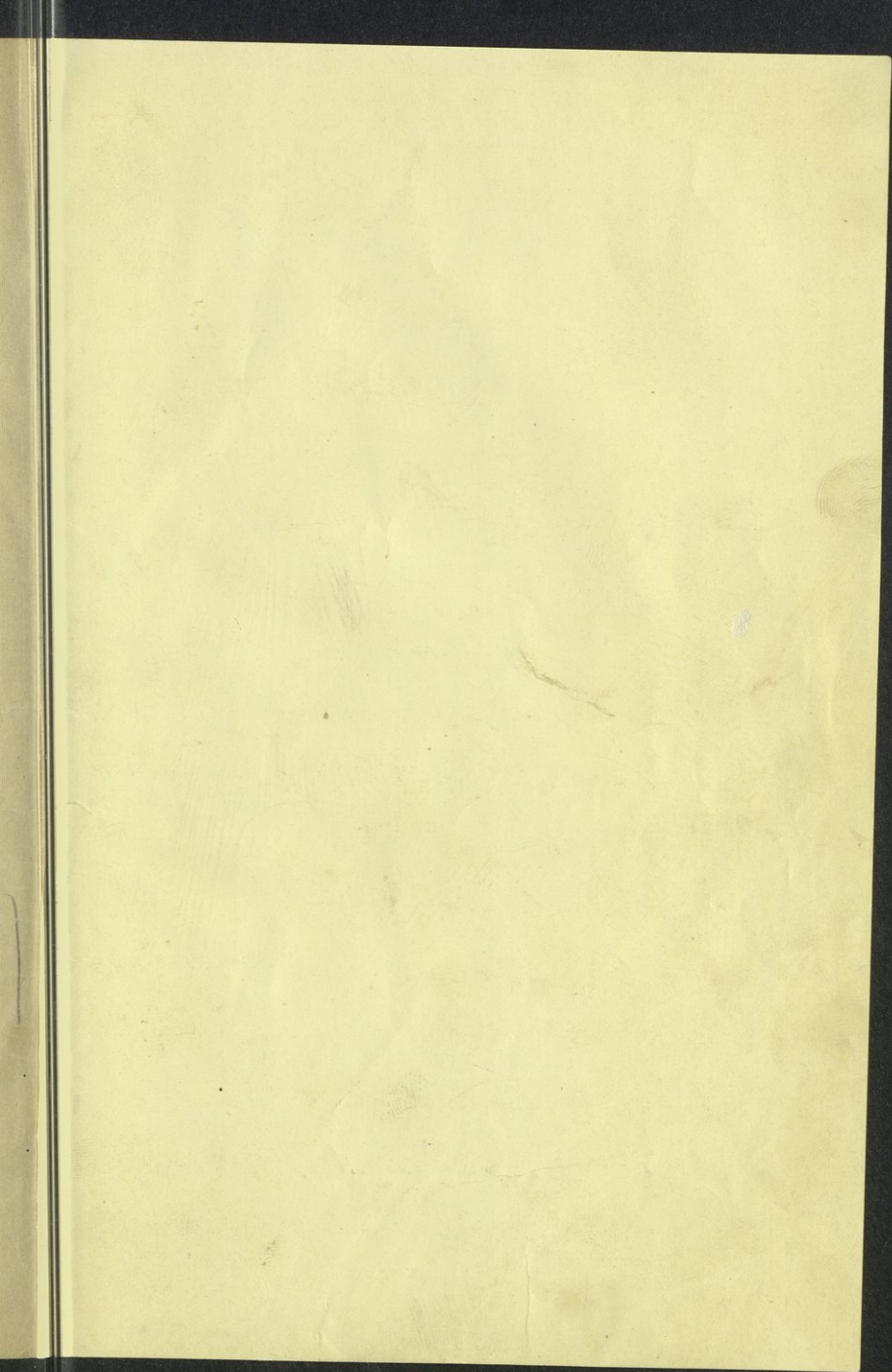
ص

الغلاف والزخارف الفنية
بريشة الفنان المجري الشهير

أريك رى مانيس



کانت ندی .. کریریس



كريزيس

كانت مكبة على صدرها ، متكئة على مرفقيها ، وقد باعدت
بين قدميها ، وهى تثقب بدبوس طويل من الذهب ، وسادة
من التيل الأخضر ، ثقوباً منظمة . . .

وكانت قد استيقظت قبيل العصر ، متعبة من طول نومها ،
فظلت مستلقية على السرير ، تغطى جنبها غلالة من شعرها
الذهبي الداكن الغزير . .

وكان شعرها متألقاً ، كشاً ، ناعماً ، كأنه جناح لين ممتلئ
حرارة وحياة ، وقد تدلى على ظهرها ، وامتد حتى ركبتيها ملتويًا ،
متألقاً ، غزيراً . .

وكانت غايات الإسكندرية قد أطلقن على تلك المرأة اسم
« كيزيس » ، لجمال ذلك الشعر الذهبي ، الذى لم يكن كشعر
السوريات الناعم ، ولا كشعر الآسيويات المصبوغ ، ولا كشعر

المصريات الفاحم . . وإنما كان خاصاً بينات « الجليل » من
السلالة الآرية .

وقد ولدت على شاطئ بحيرة « الناصرة » ، في بلد ضاح ،
ملؤه الورد والغار . وكانت أمها تتمشى ، في المساء ، في طريق
أورشليم ، تتعرف بالسياح والتجار ، وتتنزه معهم في الحقول
الساكنة . . وكانت امرأة محبوبة في « الجليل » ، ولم يكن الكهنة
يترفعون عن بيتها ، لأنها كانت ، على ذلك ، كريمة تقية ،
تقدم الذبائح والقرايين . . . وحدث أن حملت ، وشاع الخبر ،
فقال رجل أوتى التنبؤ : « إنها ستضع بنتاً تحمل يوماً ما حول
جيدها : (غنى شعب وإيمانه !) » . . فلم تدرك الأم كيف يتم
مثل هذا الأمر العجاب . وسمت بنتها « سارة » - أي « أميرة »
باللغة العبرية - وقطع هذا الاسم السن القادحين .

وكانت « كريزيس » تجهل ما تنبأ به لها ذلك الراجم
بالغيب ، وكثيراً ما كانت تفكر في مستقبلها ، وقليلاً ما كانت تتذكر
طفولتها ولا تحب الكلام عنها أو الخوض فيها . . وكان كل ما بقي
لها من تلك الأيام الماضية أثر رعب وضيق سببهما رقابة أمها
الشديدة لها وخوفها عليها ، حتى إنها كانت عند خروجها إلى
طريق أورشليم تجلسها في الغرفة ساعات طويلة . . وتذكر

الكوّة المستديرة التي كانت تطل منها على ماء البحيرة، والحقول
الزمردية، والسماء الصافية، والهواء البليل، هواء «الجليل»،
وقد تناثرت حول البيت أشجار الأثل والقنب الوردى، والبنات
يغتسلن في الغدير الصافي حيث يجدن الأصداف الحمراء تحت
زهر الغار. وكانت الزهور على الماء والأرض في كل مكان،
وكانت الزنابق الكبيرة ترصع الروابي والجبال.

وكانت في الثانية عشرة من عمرها عندما هربت لتتبع جماعة
من الفرسان الشبان يقصدون مدينة «صور» ليبيعوا العاج..
وقد أدركتهم حين أشرفوا على بئر.. وتذكر جلياً كيف خطفوها
على خيولهم، وهي مبهوتة من شدة الفرح، في ليلة صحو،
مشرقة السماء.

وإن تنس لا تنس دخولها مدينة «صور» على رأس
الركب، على حصان يحمل سلتين، وهي ممسكة بمعرفته، تهز
بكبرياء ساقها الجميلتين العاريتين، لترى نساء المدينة ما يجري
فيهما من دم نقي طاهر!...

وفي ذات ليلة، رحلوا إلى مصر، فتبعتهم حتى سوق
الإسكندرية.. وهناك، في بيت صغير أبيض، له شرفة
وعُمد عالية، تركوها، بعد شهرين، مع مرآتها المعدنية،

وطنافس ، وغارق ، وفراش وثير ، وجارية هندية جميلة بارعة في
تزيين الغواني وتمشيط شعورهن .

ولما كان بيتها في أقصى المدينة ، لم تعرف — لزمن مديد —
غير السياح والتجار كأمرها ، لأن شبان المدينة الأغنياء كانوا
يترفعون عن الذهاب إلى ذلك المكان القصى . . ومنع ذلك ذاع
صيتها ، فقد حركت من المشاعر ما كان ساكناً ، وأذكت
من العواطف ما كان كامناً ، وشوهد أرباب القوافل يتعجلون
بيع بضاعتهم بثمن بخس ، ليتمكنوا من قضاء ليالٍ معها ،
يفلسون بعدها . . . واشترت بالأموال التي اكتسبتها حلياً ،
ووسائد غالية ، وعطوراً نادرة ، وثياباً موشاة بخيوط الذهب ،
وأربع جوار . .

وحذقت عدة لغات ، وحفظت قصصاً عن كل البلاد ،
فأخذت عن الأشوريين قصة حب « دوزى وعشتار » ، وعن
الفينيقيين حكاية « عشترون وأدونيس » ، وعن بنات جزائر
الإغريق سيرة « إيفيس » . . وعرفت غراميات « أتلنتا » ،
وأسرار حوريات الناي العذارى . . وأخيراً ، لقنتها جارياتها
الهندية بصبر ، في خلال سبع سنين ، تفاصيل فن الحب المعقد
الذي ابتدعته غواني « بلبوثره » من أعمال الهند . . ذلك أن الحب

فن كالموسيقى ، له أنغامه وأوزانه ، ينشئ تأثيرات مثلها رقة ودقةً
وطرباً ، وقد تفوقها أحياناً فى درجة وقعها وقوة تأثيرها ..

وعاشت « كريسيس » تلك السنين السبع لا تتصور حياة
أرغد من حياتها ، أو أشد تنوعاً وتجديداً . ولما ناهزت العشرين
من عمرها ، وتحولت من فتاة إلى امرأة ، ثارت بها على غرة
نزعات أخرى ، وأدركت أنها لم تعرف من الحياة غير
« ألف باء » الغرام .

.....
وفى ذلك الصباح ، كانت مكبة على صدرها متكئة على
مرفقيها ، وقد باعدت بين قدميها ، وهى تتمقب بدبوس ذهبي ،
وسادة خضراء ، ثقوباً منظمة ..

وكانت غارقة فى جلة من الفكر .
وإذا بها تصيح فجأة : « جالا ! جالا ! .. » .
وكانت « جالا » هذه جاريتها الهندية ، وتدعى :
« جالنتشدر تشابالا » ، ومعناها : « متحركة — تتغير كخيال
القمر — على الغدير » . وكانت « كريسيس » تستثقل مناداتها
باسمها كله .. فدخلت الجارية ووقفت بالباب .

— جالا ! .. من جاء البارحة ؟

— أفلا تعرفين ؟

— كلا .. فلم أنظر إليه ! .. أكان جميلاً ؟ ! فقد نمت طول ليلي لأنتى كنت منهوكة القوى .. ولا أذكر شيئاً .. ففي أية ساعة انصرف ؟ أمبكراً في الصباح ؟

— عند طلوع الشمس ، وقال ...

— وماذا ترك ؟ .. ولكن لا ! لا تقولى شيئاً .. سيان عندي ! .. ماذا قال ؟ أو لم يأت أحد بعد انصرافه ؟ .. وهل يعود ؟ هاتى أساورى ! ..

فجاءتها الجارية بصندوق صغير ، فلم تنظر « كريزيس » إليه ، بل رفعت ذراعيها ، وصاحت :

— آه يا جالا ! يا جالا ! .. إني أتوق إلى مغامرات جديدة ! ..
فقالت جالا :

— إن كل شىء لا يكون شيئاً إلا إذا كان غريباً طريفاً ..
إن الأيام تتعاقب متشابهة .

— كلا ! .. كان الزمن الغابر غير هذا ! كانت الآلهة في كل بلاد العالم تنزل إلى الأرض وتحب النساء ، والغانيات منهن خاصة .. ففي أى خدر ينبغي انتظارهم ؟ وفي أى غاب ينبغي البحث عنهم ؟ أولئك الذين يفوقون الرجال ؟ ! أية صلاة

تقدم إليهم ليقبلوا فيعاموني شيئاً ، أو ينسوني كل شيء ؟ ! وإذا
كان آلهة الإغريق قد كفوا عن الهبوط أرضاً ، أو شاخوا ،
أو ماتوا ، فليت شعري ، يا جالا ، أأموت قبل أن أرى الرجل
الذي يشبع حياتي ؟ !

ثم استلقت على ظهرها ، وشبكت أصابعها على صدرها :
— لو أن أحداً هام بي ، لخيل إلي أن هنائي يطغى إذا عذبتة
حتى يموت ! . أما الذين يأتون إلي فلا يستأهلون دمة العين ! .
ومع ذلك فالذنب ذنبي ، لأنني أنا التي تدعوهم ، فكيف
يجبوني ؟ !

— أي سوار تضعين اليوم ؟
— سألبس أساوري كلها . . ولكن دعيني ، فإنني لا أريد
أحدًا ! . . واذهي عند درج البيت وانهرى من يطرق بابي ! .
إنني اليوم لنفسى ! . .

— أفلا تخرجين ؟
— بلى ، سأخرج وحدي . . وأرتدى ملابسى وحدي . .
ولن أعود ! . . اذهبي ! اذهبي ! . .
وألقت بقدم على البساط ، وتقطت ، ثم قامت . . وانسلت
« جالا » . .

وتمشت متشاقلة في غرقتها ، وقد شبكت يديها وراء عنقها ،
شاعرة بلذة وضع قدميها الخافيتين على الرخام ، ثم دخلت الحمام .
وكانت تمتعها الكبرى أن ترى جسمها من خلال المياه
التي تلعب بها حتى يغطس رأسها ، وتسمع خرير الماء في أذنيها
كأزيز القبلية المثيرة . . وكانت ساعة الاستحمام هي الساعة التي
تبدأ فيها « كريزيس » بعبادة ذاتها ، وتمجيد حسناتها . .

وعندما انطفأت شعلة النهار ، خرجت من الحمام ، وهي
تترنح إعياءً وتيهًا ، والماء يقطر منها ، وصاحت بالجارية ،
عند سيرها :

— جففيني ! . .

فدنت منها الجارية ، ويدها إسفنجة كبيرة ، مسحت
بها مراراً شعر « كريزيس » العسجدي حتى جف ، ثم غمست
الإسفنجة في جرة ملأى بالزيت العطري ، ومسحت بها في
رفق شعر سيدتها وجلدها ، ثم دلكت بشرتها ، بقماش خشن ،
حتى عاد إليها لونها الوردي . .

— سرّ حيني . .

فرفعت الجارية شعر سيدتها بين يديها ، ولفته ، ثم جدلته
مع أشربة من الحرير الأخضر ، بينما كانت « كريزيس » ممسكة

بمراة من النحاس المصقول ، ترقب أصابع جاريتها وهي تنساب
وتتولى بين غدائر شعرها الغنى الغزير ، تعقسه وتحبكه في
ضفيرة تجمعها فوق رأسها بشكل مخروطي ، وتشبكها بدبايس
شعر من الذهب الخالص . . . ولما تمت زينة رأسها ركعت
الجارية أمامها ، وأزالت ما في مخابيء البدن من شعر طفيلي ،
حتى صارت كتمثال من المرمر . . .

— خططيني ! . . .

فتحت الجارية علبة تحوى ألواناً من الدهون والطيوب
و «الخطوط» والكحل ، وأغمدت فرشاة من شعر الجمل في الإثم
المائع ، ومست أهداب سيدتها ، وأخرجت «مروداً» من مكحلة
خطت به خطين أسودين يمتدان إلى ما يلي لحاظ عينيها ، نحو
الصدغ ، ثم طلت جفنيها وما حولهما من محجريها بمسحوق
رصاصي أدكن ، وجعلت في كل موق نقطة من سائل
قرمزي ، ثم زججت حاجبيها بعناية ودقة ، ثم أخذت ريشة
ناعمة وغمستها في مائع من الإسبيداج الممزوج بالطيب والزيت
التمين ، وطلت به وجهها وعنقها وصدرها وجسمها إلى إخصى
قدميها ، ثم «دهمت» شفتيها وحامتيها «بدمام» من اللعل ،
ودهننت وجنتيها بمسحوق أحمر ، وأتمت زينتها بمرخ ما بقي

من جسمها بالطيوب والعطور، ثم بتقليم و«تدريم» أظافرها .

— غينى ..

فغنت الجارية ، وردت عليها سيدتها غناءها ، والتغزل فى جمالها ، والتدله فى هواها ، فشبهت وجهها بالبدر ، وغداؤها بسعف النخل ، وشعرها بنهر ممتد فى واد طويل عند مغرب الشمس ، وعينها بعينى ماء صافيتين غميقتين تكتنفهما وتظللهم أشجار باسقة كثيفة ، وشفتيها بزهرتين نضرتين مصبوغتين بدم غزال ، أو بشفوى جرح جديد دام ، ولسانها بالخنجر المخضب بدم الجرح الذى كوّن شفتيها . كما شبهت ذراعيها وساقها بأعمدة من العاج ، وثديها بالرمان المرمرى ، وقامتها بغصن البان ...

.....
وجعل الليل يرخى سدوله ، وسطع القمر حتى ملأ الغرفة نوراً أزرق . وكانت « كريسيس » مازالت متجردة تنظر إلى انعكاس أشعته على جسمها .. ثم اعتدلت فجأة ، وصاحت :

— كيف يا جالا ! فيم تفكر ؟ .. إن الليل قد دهمنا ولم أخرج بعد ... جالا ! جالا ! .. قولى لى ، أنا جميلة ؟ ! قولى لى إننى الليلة أجمل منى فى كل الليالى ! .. وإننى أجمل امرأة

في الإسكندرية . . . كما تعرفين ! . أفلا يتبعني من اللحظة بطرفي
الخفي ، بعد قليل ، كالكلب الدليل ؟ ! أفلا أستطيع أن أفعل
به ما أشاء ، فأجعله أطوع لي من عبيد أو بناني ، إذا بداني ؟ !
ثم وضعت في ذراعيها سوارين من الفضة على شكل
ثعبانين ، وفي قدميها شراك نعل من جلود مشتبكة ، وفي
أذنيها قرطين مستديرين ، كحلقنتين كبيرتين ، وخواتم في
أصابعها ، وقلادة في عنقها ، ذات ثلاثة صفوف من الذهب
المنقوش في حي « باكوس »

ونظرت طويلاً إلى جسمها المتجرد ، وتناولت ثوباً شفافاً
مهفهاً من الكتان الذهبي ، وألقتة على جسمها ، وتركت ذراعاً
وكتفاً مكشوفتين ، ورفعت على ذراعها الأخرى ذيلها كيلا
يلوثه الثرى ، وأخذت بيدها مروحتها ، وخرجت تتثنى عجباً ،
وتتبه دلالاً . . .

ومشت على طول البيوت ، في الشارع القفر ، المنير بضوء
القمر ، يتقدمها ظلها الصغير ، وكأنه طفلها ، يحبو أمامها . . .

(٢)

على رصيف الإسكندرية

كانت رصفة الإسكندرية ، عند الأصيل ، ملتقى المتزهين
من : الفلاسفة ، والعلماء ، والشعراء ، وبنات الهوى ، والمغنيات ،
والراقصات ، وباعة الفاكهة ، والملاحين ، والشحاذين ، والسقائين
يحملون القرب على كواهلهم أو على ظهور حميرهم .. وكان الفتیان
والفتيات يروحون ويحيئون على الرصفة ، أشبه بما نراه اليوم على
« الكورنيش » .. وكنت ترى معرضاً للغزل والأناقة والفاقة ،
من لابسى الصنادل الذهبية إلى حفاة الأقدام ، ومن مرتديات
أنخر الخز والديباج والكتان إلى عاريات الأبدان .

وكنت تسمع فى ذلك اليوم مغنية بين قينتين من النافحات
بالنأى ، استرسلت تغنى غزلاً فى حوريات الغاب وهن يلعبن
ويعرحن على العشب الندى الأخضر ، و « عيروس » يريش
سهام الحب الفتاك ويرسلها هنا وهناك ، يغرى بهن الرجال ..

وبعد أن ختمت أغنيتها مدت يدها إلى من أحرق بها من
المتفرجين، وجمعت قروشاً وضعتها في حذائها، وانقض عنها
المستمعون، واختلطوا بجمهير المتنزهين، من المتسكعين
العاطلين، أو رجال المال والأعمال، أو طلاب العشق والجمال..
ثم علا ضجيج القوم، وسرى بينهم همس ولغط.. وتردد
هتاف باسم « ديمتريوس » .. .

فقد ظهر بينهم المثال العظيم الذي وهبته أميرة البلاد
نفسها ليتخذها مثالا للمبعودة « أفروديت » ، وكانوا يقولون
إنه صاحب الأميرة وعزيز مصر . وكان جميلاً كأبولو ..
وكانت له ، مع ذلك ، وقائع هوى وصلت إلى مسامع الأميرة ،
فقد شغف نساء البلاد كلهن حباً ، فلم تشر إليها بكلمة ، حباً له
وخشية أن يعود إلى رودس ، مسقط رأسه ، ومهدفته ..
وفي ذلك اليوم ، كانت تجلجل محياه سيما الحزن ..
فماذا أصابه ؟

غربت الشمس ، والنساء يشرن إلى هذا الرجل ، رجل
أحلامهن ، وهو لا يكثرث بحركة ، ولا إشارة .. يتكئ على
سور الرصيف ، ينظر إلى البحر ، ويصغى إلى العازفات بالناي .
وجن الليل ، وعادت النساء أدراجهن إلى الإسكندرية ،

أسراباً، يتبعهن الرجال . وكلهن يلتفتن نحو «ديمتريوس» ، وقد
ألقت إليه إحداهن بلطف زهرة صفراء، وضحكت .. ثم ساد
السكون على الرصيف ...

(٣)

ديمتريوس

ظل « ديمتريوس » منفرداً ، متكئاً على السور في المكان الذي غادرت فيه العازفات بالنأى ، يستمع إلى هدير البحر ، وأشعة السفن وهي تفرقع من عصف الهواء ، محاولاً أن يطرد أفكاره ، متشاعلاً بالنظر إلى الكائنات ، كأنه يحاول أن يغرق همومه في لجة البحر . .

وكان يحتوى ضجيج الحياة ، فلا يغادر بيته إلا إذا استتب السكون ، ولا يعود إلا عندما يخرج صيادو السمك وباعة الخضر . . وكان قد استطاب تلك الوحدة التي لا يرى فيها إلا ظل الإسكندرية وظله . . لذلك لم يكن قد رأى الظهيرة لعدة أشهر !

وكان قد برم بنفسه ، وبالأميرة « برنيس » . . وكاد الآن ينكر ليلة ازدهاء الفخر والكبرياء والفرح ، منذ ثلاث سنوات ،

لمرآها لأول مرة ، إذ استقبلته ، منفردة ، في جناح من قصرها
المكتظ بالآثاث الوثير الذي يخنق كل صوت ..

وكانت مضطجعة على جنبها الأيسر ، غارقة في الحرير ،
وفي غداثر شعرها .. وعليها ثوب غنمته يد غانية ذائعة الصيت ،
يبدو منه جسمها في عشرين موضعاً ، كأنها دعوات إلى
ملاستها ومداعتها ...

وإنه لثوب يشف للعاشق في صحوه ، عما قد يتخيله في
نومه ، دون حاجة إلى نضوه ! ..

فجثا ديمتريوس بكل خشوع ، وتناول قدمها الصغيرة ، وقبلها
كدرة ثمينة .. فوقفت ، وقفة جارية تُتخذ مثلاً ، ونزعت ثيابها
وحليها ، وتجردت حتى من أسورة ذراعيها وخواتم أصابع قدميها .
وكان والد الأميرة من البطالسة ، وكانت أمها أميرة من
أصل سوري ، هو سلالة الإلهة « عشروت » المعروفة عند
الإغريق باسم « أفروديت » . وكان « ديمتريوس » يعرف
ذلك ، ويعلم أنها تفخر بسلالتها الأولمبية .

قالت ، وهي واقفة متجردة أمامه :

— أنا « عشروت » ! .. نخذ المرمر والأزميل ، واعرض

مثالى على قوم مصر ، فإنى أريد أن يعبدوه !

فنظر إليها « ديمتريوس » ، وأحس المتعة الهنيئة التي تحي
جسدها الغض .. وقال لها :

— إننى لك أول العابدين .. !

وطوقها بذراعيه ... فلم تغضب الأميرة لهذه المفاجأة ،
ولكنها تراجعت عنه متسائلة :

— أنزعم أنك « أدونيس » حتى تلمس الآلهة ؟ !
فأجاب :

— أجل .. !

فنظرت إليه ملياً ، وارتسم على شفيتها ظل ابتسامة ،
وقالت :

— صدقت .. !

.....
ونفر أصحابه منه غيرة وحسداً ، ولكن النساء همن به
حباً .. فكان إذا مر فى القصر وقفت الجوارى وسيدات
البلاط كأن على رؤوسهن الطير ، حتى الأجنبية كنَّ يصغفن
إليه لأن صوته سحر .. فإذا ما خلا بالأميرة تراجعت الوصيفات
يتكرن العلل والأسباب .. وكثيراً ما كانت تمتلىء ثيابا ثيابه
وجيوبه بأوراق البردى المدونة فيها أسماء نساء ، وكلمات

ضراعة وابتهاال ورجاء .. فكان يلقيها قبل قراءتها ملالة
من هذا كله .

ولما نصب تمثال « أفروديت » في هيكلها ، ازدحمت جماهير
المتعبدات إلى الهزيع الأخير من الليل ، يقرآن اسمه المحفور في
الحجر . ويقدمن إليه الحمام والورد قرباناً !

وغص بيته بالهدايا ، فتقبلها بادئاً بلا مبالاة ، ثم صار
يرفضها بعد ما عرف ماأرب اللواتي قدمنها ، وقد طمعت فيه
حتى جواريه ، فضربهن بالسياط ، وباعهن في سوق ،
« راكوتيس » . ولما بهرت عبيده الهدايا ، فتحوا بابها للنساء ،
فكان يجدهن في أشكال فاضحة حول فراشه .. وكانت أدوات
زينته تُسرق . وكان عند أكثر من امرأة في المدينة حذاء منه ،
أو حزام ، أو كأس شرب .. وربما وجد عند بعضهن بذور
الفاكهة التي كان يلفظها ! ولو أن وردة وقعت منه والتفت لما
وجدوها وراءه . . . بل إنهن ليكدن يجمعن أديم الأرض من
تحت قدميه ! . . .

وكان هذا الاضطهاد خطراً عليه ، يهدد دقة شعوره بالتبليد ،
فضلاً عن أنه بلغ السن التي ينبغي فيها للعاقل المفكر أن
يفصل بين شطري حياته ، فلا يخلط بين حكم العقل وحاجة

الجسم . فاتخذ من تمثال « أفروديت » بداية للهداية . . وكان كل ما للأميرة من جمال ، وكل ما يمكن ابتداعه مثلاً أعلى لتقاطيع جسمها اللدن ، قد أخرجه « ديمتريوس » من الصخر الأصم . . ومن ذلك اليوم رأى أنه ما من امرأة على ظهر الأرض ببالغة تلك الصورة المثلى التى يتمثلها خياله . . فأصبح التمثال قبلته ومشتهاه . فلم يعبد سواه ، عبادة متطرفة ، فرقت بين الجسم والفكر ، وتنزهت عن المادة ، وسمت على اللحم والدم . . إلى حد أنه لما عاد فرأى الأميرة نفسها ، ألفاها مجردة من كل ما قد كوّن لديه سحرها ، وتعللت به رغباته زمناً ما . . وكانت إذا ما استسامت إلى ذراعيه ، وهجعت ، وأصابتها من النوم سنة على صدره ، نظر إليها كأنها دخيلة اغتصبت حبه ، من حيث لا حب . . واتخذت شكل المحبوبة . . فيزداد منها نفوراً !

ويندر أن يتحول رجل عن حبه ، ولا تمر به فترة تجذبه فيها حياة الرذيلة . . فاستسلم « ديمتريوس » إليها . . ومع ذلك كانت تعتريه الندامة ، فيصعد درجات الهيكل ، ويرفع إلى تمثال « أفروديت » ، فى انجذاب ولوعة ، هذه الصلاة :

— « إيه أيتها الأخت الإلهية !.. أيتها المتجلية المزدهرة !.. إنك لم تعودى الآسيوية الصغيرة التى أخذت عنها المشال

الحقير !.. بل أنت فكرتها الخالدة !.. إنك روح «عشروت» ..
كنت تسطعين في عينيها البراقتين ، وكنت تحترقين في شفيتها
القرمزيتين ! وكنت خائرة القوى في يديها الرخصتين ! ..
وكنت تلهثين في ثديها الناهدين !.. أيتها الإلهة ! أنت
هناة العالم وشقاؤه !.. ولكنني رأيتك ، واستدعيتك ،
وتمسكتك !.. إنني كشفت للأرض عنك !.. إنها ليست
صورتك ، بل أنت نفسك التي أعطيتها المرأة ، وغطيتها
باللآلئ ، كيوم ولادتها من أرجوان الشمس وابتسامة الماء !.. «
ولما انتهى من نجواه ، نزل إلى رصيف الإسكندرية ،
في الساعة التي تعود فيها الجماهير ، وسمع الغناء الشجي الحزين
الذي كانت تنتحب فيه النافحات بالنأي .. وفي هذه الليلة ،
ترفع عن الدنس ، وعافت نفسه الرذيلة ، وثار عليها ...
وسرى فيه — شيئاً فشيئاً — هدوء الليل ، فاستقبل الهواء ،
الذي يمر بالبحر ، وكأنه يحمل رائحة ورد «أمانت» إلى مصر ...
وكانت تمر بمخيلته صور نسوية جميلة ، وهو يفكر في التماثيل
التي ينوي صنعها ، منتزعاً نفسه من الحب ، مأخوذاً بالجمال !..
وحدث أنه اتجه نحو الرصيف .. فرأى حجاباً ذهبياً لامعاً
يسطع على امرأة كانت ، عن بعد ، تتمشى ...

(٤)

عابرة السبيل

تقدمت الهويينا .. وهى تميل برأسها على كتفها .. وكان
الرصيف مقفراً ، وقد انبسط عليه ضياء القمر ، وكان ظلها الصغير
يخفق أمام خطاها ..

فنظر إليها « ديمتريوس » وهى تتقدم ، فعرف من حليها
أنها غانية . فأسرع باجتياز الطريق ، ليوفر على نفسه تحية منها ..
ولم يرد أن ينظر إليها ، فحصر فكره فى رسم تمثال جديد ،
ومع ذلك التفت إلى عابرة السبيل .

وعندئذ رأى أنها لم تقف ، ولم تهتم به ، ولم تتظاهر بالنظر
إلى البحر ، أو برفع حجابها ، أو بأنها غارقة فى تأملاتها ، بل
كانت تنزه ببساطة ، منفردة ، لا تبحث هناك إلا عن طراءة
الهواء ، والاستسلام للوحدة والسكون .. فلم يرفع « ديمتريوس »
عنها بصره ، وبقى بلا حراك ، وتاه فى يداء الدهشة ..

واسترسلت في المشى ، كظل ذهبي ، متباعدة ، متراخية ،
متخطرة ، وأمامها الظل القائم الصغير ..

وكان يسمع في كل خطوة خفق نعلها على حصباء الطريق .
وظلت في سيرها إلى أن وصلت جزيرة الفنار .

وهرول « ديمتريوس » فجأة خلفها ، كأنه كان يعرفها من
زمن بعيد .. ثم وقف مرتجفاً ، وتراجع ساخطاً ، ولكنه لم يقو
على الترحيح عن مكانه ، وأخذ يحدث نفسه :

— من تكون هذه المرأة التي ملكت على مشاعري ، ولم
أر منها إلا قدّها المياس في ثوب أصفر ؟ وما سر انجذابى إليها ؟
عساه أن يكون إلهام الفن يوحى إلى أنّها نموذجى الذى أنشده
لأبدأ بصنع التمثال غداً ؟ !

ولكن ، لماذا أتت إلى هذه الجزيرة في تلك الساعة
المتأخرة من الليل ؟ ولماذا لم تعرفني التفاتة عندما رأتني على
الرصيف ؟

وبينما هو مسترسل في تأملاته ، عادت تتخطر ، في ضوء
القمر ، وأقبلت نحوه صامتة ، ساكنة ، كأنه لم يكن في طريقها .

(٥)

المرأة والمشط والعقد

ولما صارت على بعد عشر خطوات من «ديمتريوس» دارت
بنظرها نحوه .. ولما رأى عينيها الساحرتين أحس برعدة تتمشى
في كل جوارحه ، وشعر كأن قواه قد تلاشت ، وعضلات بدنه
تفككت .. وهى تتقدم فى سيرها ، وتمر من أمامه غاضة طرفها ،
نخشى أن تفوته الفرصة ، فيندم عليها حين لا ينفع الندم ..
فاستجمع ما بقى له من عزم ، وابتدورها بالسلام المألوف :
— إني أقرئك السلام !

فأجابته قائلة : — وأنا أقرئك السلام !

فشعر «ديمتريوس» باسترداد قواه ، فسالها :

— إلى أين أراك ذاهبة ؟

— إلى بيتى .

— وحدك ؟ !

— نعم وحدي .

قالت ذلك ، وهمت بالاستمرار في طريقها ، فاستوقفها
« ديمتريوس » قائلاً :

— ومن أين ؟ ولماذا أتيت ، وعليك هذا الثوب النفيس
وهذه الحلي الثمينة ؟

— أ كنت تتوقع أن تراني عارية وأنا أتنزه على
« الكورنيش » ؟ أو أرتدى ثوباً من الصوف كالجوارى ؟ إني
ألبس ما يعجبني ويحمل الناس على الإعجاب بي .. ويلد لي أن
أتمتع بمنظر أصابعي وفيها كل خواتمي .

— ولماذا لا تحملين مرآتك في يدك لترى عينيك
الساحرتين ، فتذهلي عن كل شيء آخر ؟ . ولست أخطيء
إذا زعمت أن صاحبة هاتين العينين النجلاوين لم تريا نور العالم
لأول مرة في الإسكندرية .. أأنت يهودية ؟ ..

— كلا ، لست يهودية ، بل جليلية ..

— وما اسمك ؟

— إني لن أبوح لك باسمي السرياني ، لأنه ملكي ،
لا أطلقه على نفسي في هذه البلاد ، أمّا اسمي الذي يعرفني به
أصحابي هنا فهو « كريزيس »

— أذهابة أنت الآن إلى زوجك المجدود؟

فوضعت يديها في خصرتها وقالت :

— ليس لي الليلة زوج ...

— أراك قد بدأت متأخرة في البحث !

— ومن قال لك إنني أنشد رجلاً ؟ .. لقد جئت لمجرد

النزهة ، لمزاجي ..

فمد « ديمتريوس » يده ، وأمسك بذراعها العاجية ، فتراجعت

قليلاً ، وقالت له في تمنع وابتسام :

— كلا ! كلا ! . إني تأخرت كثيراً ، فدعني أعود إلى بيتي ،

لأنني أشعر بالتعب والجوع ..

وانحنى على قدمها ، ورفعها بيدها ، وقالت :

— انظر كيف تضغط شراك نعلي على بشرة قدمي لأنها

مشدودة أكثر مما يحتمله جلدي ، وإن لم أرخها الآن

فسيتزك ضغطها أثراً جميلاً يغري من يراه بتقبيله ! فتركني

بحقك ، وانظر ! انظر ! ألسنت ترى أن ثوبي العسجدي قد

تشبَّه عند خصري ؟

فرفع « ديمتريوس » يده ومر بها على جبينه المشليج .. وبعد .

صمت ، قال :

— تقدميني إلى بيتك ..

فأظهرت « كريسيس » دهشتها الغاضبة ، وأجابته قائلة :

— يقيناً لن أفعل !... أتظنني أبيع جسدي في الأسواق ،

حتى تجروا على مخاطبتي بصيغة الأمر ؟ .. إنك لا تعلم عني

شيئاً ، أو إذا ما كنت على موعد مع سواك ؟ . فهل مشيت

خلفي لترى الأبواب التي تفتح على مصراعيها ترحيباً بمقدمي ؟ !

وهل أحصيت الرجال الذين يشقون أو يسعدون بحبي ؟ ..

أقول : « تقدميني إلى بيتك » ؟ .. لن أتقدمك إلى بيتي

يا سيدي ، فأرني ما أنت فاعل ! . ما لي ولك ؟ وأنت وشأنك ،

وأنا وشأني ، أما بيتي فلن تعرف إليه سيلاً !

— إنك لا تعلمين من أنا أيتها الحسنة !

— كيف لا ؟ .. وأنت « ديمتريوس » صانع تمثال إلهتي ،

وعشيق أميرتي ، وسيد مدينتي !... أما فيما يتعلق بي ،

فأنت عبدي ، لأنك رأيتني ، فوقعت في أسر حبي !

ثم انحنت نحوه قليلاً ، ومالت برأسها البديع ، وقالت :

— نعم نعم ! أنت تحبني !... فلا تقطع عليّ كلامي ، فإني

أدرى بما تنوى أن تقول ... أأست الذي يحب ولا يحب ؟ ..

أأست المحبوب المعبود من كافة نساء الإسكندرية ؟ ألم تضرب

بحب « غليسيرا » — وهى التى امتنعت على « أنطيوخوس » —
عرض الحائط ؟ أأنت الذى أمرت جواريك أن يطردن
« ديموناسا اللسبية » ، ويطرحنها عارية أمام بابك ، لما اقتحمت
عليك فراشك ، فأقسمت المسكينة بعدها أن تموت عذراء ؟ !
وهل تظن أنى أجهل نبأ « كاليستيون » الشهيرة بجهاها ،
التى ليأسها من وصلك اشتريت البيت المواجه لبيتك ، لتتجرد
لك وتبدو نصف عارية .. لعل وعسى ... ؟ ! إنك تحسبنى أجهل
كل ذلك ، ولكن الغايات لا تخفى عليهن خافية ! ..

وكان « ديمتريوس » يحدق ببصره فى « كريزيس » ، دون
أن يسمعها .. فضت تقول :

— نعم ، إن كل هذا لا يعنيك ، لأنك هائم بى ... وأراك
ساهماً تتأمل فى جمال عيني ، وسواد لحظى ، وحلاوة ثغرى ،
ولون شعرى .. ولعلك تضرب أخماساً لأسداس عمن أحببت ،
وكم أحببت .. ولكن هذا الذى كان حلالاً لغيرك ، هو اليوم
حرام عليك ! .. وفى العام الماضى رقصت عارية أمام عشرين ألف
نسمة ، ومع ذلك لن تحظى بروئيتى عارية ! .. وستبقى جاهلاً
أمرى ، وسرى ، وشعورى ، وحقيقة جمالى ، وروعة غرامى ،
لأنك رجل أخرج قلص ، بلا شعور ولا قلب ... رجل جبان

بغض!... ولست أدري كيف لم تبلغ بامرأة منا كراهيتك
بحيث تقتلك أولاً وتثني بأميرتك...

فأمسك «ديمتريوس» بذراعها بشدة، حتى جشت...
فاستجمعت قواها، وردته عنها قائلة:

— آه!... لست أخشاك يا «ديمتريوس»، ولو
كنت قوياً كـ «أطلس»، وكنت ضعيفة كعذراء ولهى بين
ذراعى حبيها... أنت تريدنى، وهذا سر ضعفك، وأنت تتمنى
أن لو ترانى متجردة من فرعى إلى قدمى، لأنك تتوسم
جمالى، والحق أنى جميلة!... والآن وقد صار ضوء القمر
أضعف من نور الشموع فى خدرى، ولا يلبث الظلام أن
يكثفنا، فدع ذراعى لأنك تؤلمنى... ودعنى أنهض...

وساد بينهما صمت عميق... ثم قال «ديمتريوس»:

— دعينا من هذا كله يا «كريزيس»... وأنت تعلمين أننى
لا أريد أن أقهرك على شيء، ولكن بحقك، دعينى أتبعك...
ومهما يكن من كبريائك، فإن افتخارك برفض «ديمتريوس»
يكلفك ثمناً غالياً...

وظلت «كريزيس» صامتة... فعاد إلى الكلام بلهجة أرق:

— مم تخافين؟

— أخافك لأنك اعتدت حب غيرى إياك . . أتعرف
ما يكلفه حب غانية لا تحب ؟ !
فبدأ صبره ينفد :

— إنى أقدم إليك ذهب العالم ، وهو عندى فى مصر .
— وهو عندى فى شعرى ! . . إنى مللت الذهب ، ولا
أبتغيه . . ولست أسألك إلا ثلاثة أشياء . . فهل
تجيب سؤلى ؟ !

وطن « ديمتريوس » أنها ستطلب المستحيل ، ونظر إليها
متسائلاً ، قلقاً . . ولكنها ابتسمت ، وقالت متمهلة :

— أطلب مرآة فضية تعكس فى عينيّ صورة عينيّ !
— ستكون لك ، وماذا أيضاً ؟ أسرعى فاذكرى
ما تطلبين ؟

— أطلب مشطاً من العاج الأبيض المنقوش ، أغرقه فى
شعرى الذهبى ، كالشبكة فى مياه مضيئة . . .
— ثم ماذا ؟

— ولكن عدنى بالمشط الذى أطلب !

— لك ذلك . . وبعد ؟

— أريد عقداً من اللؤلؤ أزين به نحرى عندما أرقص لك

في خدرى رقصات العروس في بلادى ..

فرغ حاجبيه مندهشاً .. وقال :

— أهذا كل ما تطلين ؟

— وهل ستعطينى العقد ؟

— أعطيك كل ما تشتهين !

— كل ما أشتهى ؟ ! .. وهذا ما أردت أن أسمع منك ..

وهل لى أن أتختر وأخصص ما طلبته من هدايا ؟

— بالطبع .

— أقسم لى على ذلك يا « ديمتريوس » ؟

— أقسم لك !

— وبم تقسم ؟

— بما تشاءين ..

— أقسم لى بـ « أفرووديت » التى صنعت لها مثلاً !

— أقسم لك بـ « أفرووديت » .. ولكن لم كل هذه الحيلة ؟

— لأنى لم أكن مطمئنة .. والآن اطمأن قلبى ...

ثم رفعت رأسها .. وقالت :

— لقد اخترت هداياى ...

فبدا على « ديمتريوس » شىء من القلق ، ونظر إليها

مستفسراً .. فقالت :

— أتحسبني أقبل أية مرآة فضية تبتاعها لى من تاجر
أزميرى ؟ ! كلا ! . إننى أطلب مرآة صديقتى « باكيس »
التي اغتصبت منى فى الأسبوع الماضى عاشقاً ، وفاخرتُ بذلك
بين أترابى . وهذه المرأة عزيزة عليها ، لأنها كانت للغانية
« روديس » ثم لـ « سافونة » ، وهى لذلك تحبها فى مكان حرير ،
تحت الحجر الثالث من هيكل البيت ، فاذهب إلى دارها ،
بعد خروجها مع جواريتها ، ولا خوف عليك . .

— هذا جنون مطبق ! أتحسبني أقدم على السرقة فى
سبيل مرضاتك ؟ !

— أأستتبهوانى ؟ كنت أظن ذلك . . وما لى وهذا ؟
أفلم تقسم لى ؟ . . أظنك أقسمت ! . . ومع ذلك فأنت
فى حلٍّ إذا أردت . . .

ومع أنه أدرك أنها ترمى إلى تضييعه وإذلاله ، فقد استسلم
إليها صاغراً :

— إنى فاعل ما تريدن .

— وإنى على يقين من ذلك .. ولكنك ترددت على ما أرى ،
فهى هدية تفوق سواها . . وما كنت كذلك لأطلب منك

مشطاً عاجياً عادياً، من المعروض للبيع في حوانيت المدينة . .
إنك أقسمت على أن أعين ما أطلب . . أتذكر قسمك ؟ . . إن
المشط الذي أطلبه هو مشط زوجة كبير كهنتنا . . فهو أنفـس
من مرآة «روديس» . . إنه مشط تاريخي كان يزين شعر ملكة
من فرعون مصر .

ولذلك حال لون عاجه إلى الصفرة من القدم ، ونقش عليه
رسم غادة بين زهر اللوتس . . ياله من مشط بديع ! وما
أسعدني بأنك ستقدمه لي ! . . ولست أريده لقيمتـه وحسب ،
بل انتقاماً من هذه المرأة الخائنة . . لأنني في الشهر الماضي
قدمت إلى الإلهة «أفروديت» شالاً جميلاً أزرق ، فرأيتـه في
اليوم التالي على كتفي زوجة كبير الكهنة هذه ! ألسـت ترى
أنني محقة في الانتقام منها يا حبيبي ؟

— ولكن كيف لي الحصول عليه ؟

— إنني أقدر ماسوف تلقاه من الصعاب ، فهي كمصرية
تضفر شعرها مائتي ضفيرة ، كغيرها من بنات جنسها . وأنا
أطلب أن يكون لي مشطها غداً ، فعليك أن تقتلها في سبيل
برك بقسمك .

ومطت شفيتها ساخرة بـ «ديتريوس» الذي كان ناظرًا

إلى الأرض وهي تتكلم .. ثم استطردت :

— أما العقد الذى أطلبه فهو العقد ذو السبعة الفروع الذى

يزين جيد « أفروديت »

فوثب « ديمتريوس » ذعراً ، وحدها بنظره ، صائحاً :

— وئى ! .. كفى سخرية بى .. أأسرق المعبودة ؟ ..

إنى لن أعطيك مما سألت شيئاً ..

فمدت يدها الجميلة ، وغطت بها فمه بدلال .. وقالت متلطفة :

— لا تحنث يا حبيبى ، لأنك ستعطينى ما سألتك إياه عن

طيب خاطر ، وستأتى عندى غداً مساءً ، وبعد غد ، وكل

ليلة ، ما طاب لك .. وسأكون فى انتظارك دائماً ، مرتدية

ما يعجبك من الثياب ، متبرجة كما يروق لك .. فإذا

رغبت فى حب رقيق ، دلتك كطفل محبوب .. وإذا تعطشت

إلى غرام عنيف ، أطفأت غليلك .. وإذا آثرت الصمت

والسكون ، فسترانى كالناعسة .. أما إذا شئت أن أغنيك ،

فلن تجد من تبذنى فى فنون الموسيقى وأغاني البلاد كلها ،

لأنى أعرف منها ما يشبه خير الماء ، وما يشبه قصف الرعود ..

ومنها الساذج المطرب البرى الذى لا تستحى البنت أن تنشده

فى حضرة أمها ، ومنها الخليع الفاجر الذى تحمر من سماعه

وجوه الرجال ، قبل النساء .. أما الرقص فلك منى فيه ما ينسيك
العالم وما فيه .. فإن شئت رقصت لك كاسية أرفل في أنفـس
الـثياب ، أو في أشف الغلالات ، أو عارية كما ولدتنى أمى ..
وإن موسيقى تلك الحركات لكفيلة بأن تلهب شبابك بسعير
غرامى .. وعند نهاية الرقص تكون البداية .. وسترى عجباً فى
خدر جمع من الطُرف والتحف ما لم تره عين ولم تسمع به أذن ..
سترى حقيقة جمال « كـريـزيس » التى لم تحظ إلا بالنظر إلى محياها ،
ولم تسمع إلا باسمها .. ستراها بين ذراعيك ، مستسلمة إليك
تحترق فى جهنم البدن ، وترتوى من رحيق القبل ، فتذهل عن
كل ما فى العالم ، ويعشى عليك بين ضغط ذراعيها ونفور نهديها ..
فصوّب إليها « ديمتريوس » نظرة بلهاء ، ردت عليها بقولها :
— ومن أجل هذا ، وأكثر منه ، أفلا تهدينى تلك المرأة

القديمة ، والمشط العتيق ، والعقد اللؤلؤى ؟

وأجابها « ديمتريوس » ، مدلهجاً :

— سيكون كل ما طلبت .

ومد يديه متوسلاً ، فالت نحوه « كريزيس » ورشقته بنظرة
أخيرة من لحاظها الفاتكة ، سلبت بها ما كان باقياً له من اللب ..
وبقبلة عجلى طبعها على فمه ، قضت على مهجته ونهاه ...

وصاحت الغانية :

— آه .. لقد كنت واثقة من ذلك .. وسأعطيك ، مقابل
عقد « أفرو ديت » ، من القبل الحرّى على فك أكثر من عدد
الآلئى فى البحار ...

ولما أفاق من دهشته ، رأى عن بعد خيالها ، وهى منطلقة ،
تتهادى فى ثوبها العسجدى ، الذى تحوّل ظلّاً قائماً ...
فدار على عقبه متجهاً إلى المدينة ، وقد انحنى رأسه من مذلة
الانكسار ، ووطأة العار ...

(٦)

في غابة أفروديت

كان معبد « أفروديت » خارج أسوار المدينة ، في جوار غابة
كثيفة من الحدائق الغناء ، والجنان الفيحاء ، تحيط بها دائرة من
البيوت الصغيرة ، المتشابهة ، البديعة البناء ، طولها نحو تسعة
أميال ، وارتفاعها اثنتان وثلاثون قدماً ، وعددها ألف وأربعمائة
بيت ، خصصت لإقامة مثل هذا العدد من الغانيات اللواتي
كتب عليهن القدر أن يعشن في جحيم الهوى .. وكان
لكل بيت باب من النحاس الأحمر عليه مطرقة تحتها لوحة
صغيرة منقوش عليها اسم الغانية التي تسكنه . وكان لكل
غانية مذبح من حجر الجرانيت الأحمر ، فوقه تمثال معبودتها
الذي أتت به من وطنها ، تصلى له على طريقته ، وبلغة بلادها ..
وتحرق أمامه البخور ، وتثر عند قدميه أوراق الورد وأغصان
الآس ، وتبشه مكنون صدرها من ألم وأمل ، ومن ترح وفرح ..

وكانوا — إذا قضت الغاية نجبها — يضعون تمثال معبودتها
في تابوتها، ليحرس جسدها في حده ..

أما معبد «أفروديت»، فكان بناء فخماً، طوله مائة وست
وثلاثون قدماً، تحيط به من جميع الجوانب درجات عددها
سبع عشرة درجة، وله اثنا عشر باباً مصفحاً بالذهب، وحول
المعبد رواق له أعمدة، ستة وثمانون عموداً، وعلى الجدران
نقوش ورسوم تمثل ألوان الحب بين البشر والحيوان والآلهة
جميعاً، كما كانوا يفهمونها أو يتخيلونها .. وكان ذلك في عرفهم
أمراً عادياً لا حياء فيه، ويتحدثون عنه بملء أفواههم !

وكانت هذه الغاية تجمع أجمل نساء الشرق، اللواتي أتين إلى
الإسكندرية من كل أقطار الأرض، وهى الغابة التى قصدتها فى
ذلك اليوم «ديمتريوس» تخلصاً من عذاباتة الروحية والجسدية .
— تطهر أيها الأجنبي .

فقال « ديمتريوس » :

— سأدخل طاهراً ..

وغمست حارسة الباب الجميلة طرف شعرها فى الماء، ومرت به
على جفونه، وشفتيه، وأصابعه، لتطهر عينيه، وفه، ويديه ..
ثم أوغل فى غابة «أفروديت» .

ورأى من خلال أفنان الأشجار القائمة أرجوان الشمس
ينطفئ . . . فذكره ذلك المساء بمساء اليوم الذى قابل فيه
« كريزيس » التى فتنته ، وأضلته . . .

حقاً ، إن نفسية المرأة من البساطة بحيث لا يكاد الرجل
يصدق أو يتصور . . . وحيثما يوجد خط مستقيم ، يبحث الرجل
بعناد عن خط معوج متعرج . . . فيجد الفراغ ، ويضل فيه . .
وكذلك كانت روح « كريزيس » صافية كروح طفل صغير ،
فظهرت لـ « ديمتريوس » خفية خفاء المشكلة العويصة . . ولما
غادرته على رصيف البحر ، عاد إلى داره كأنما كان يسبح فى حلم . وكما
فكر فيما طلبته إليه ازداد حيرة وعجزاً عن تفسير غرضها . فإذا
كانت تريد بتلك الهدايا الثلاث ؟ إن من المستحيل عليها أن
تحمل أو تبيع امرأة مشهورة مسروقة ، أو مشط امرأة مقتولة ،
أو عقد لآلى المعبودة . . وإن هى حفظتها عندها كانت مهددة
كل يوم بمصيبة اكتشافها . . . فلماذا إذن طلبتها ؟ ألكى
تخطئها ؟ ! إن من يعرف النساء مثله يحكم بأنهن لا يتمتعن
بالمشاعر المستورة بل المنشورة ، حباً فى الظهور . . فبأى حدس
حكمت بأنه أهل لأداء هذه الأعمال الثلاثة المخارقة للعادة ؟ !
لا غرو أنه لو أراد خطف « كريزيس » من بيتها لتكون رهن

مشيئته، خلية، أو جارية، أو ما يشاء، لما استعصى عليه ذلك ..
بل إنه لو أخذ أنفاسها، لما كان عليه من رقيب أو حسيب .
وكانت « كرينيس » تعلم ذلك حق العلم ، ومع ذلك
اجترأت .. وكان كلما استعرض طريقتها في تقديم نفسها
وشروطها ، زاد بها ولعاً وإعجاباً .. فما أكثر النساء اللواتي
يماثلنها جمالاً . وتقدمن إليه بطريقة متبذلة .. أما هي فلم تطلب
حباً ، ولا ذهباً ، ولا حلياً .. بل طلبت ثلاث جرائم منكرة
غير معقولة ، وكانت تستغويه بقوة ! ...

لقد عرض عليها كنوز مصر كلها .. فلو أنها قبلتها وتهافت
عليها ، لما أعطاهما شيئاً ، ولملها واجتواها قبل أن يحظى بها ..
فالجرائم الثلاث ثمن فادح ، ولكنها جديرة به ، لأنها امرأة
واثقة من نفسها تعرف قدر هبتها .. فعاهدت النفس على المضي
في هذه المخاطرة الغرامية ، وخشى أن يصيب عزمه الفتور ،
فبادر إلى « باكيس » ، فوجد البيت خالياً ، فأخذ المرأة الفضية ..
ثم قصد إلى حدائق « أفروديت » كما ذكرنا . ولما مرَّ
« ديمتريوس » أمام البيوت التي تعرض فيها الغواني كما تعرض
الزهور ، سار الهوينى ، ينهب بنظره حسنهن .. وكان في وسع
أية امرأة في ذلك المساء أن تفتنه ، إذا ظلت ساكنة ساكنة

لا تتكلف حرارة الغرام ، ولو كانت غير جميلة ..
وظل سائراً يسمع النداء تلو النداء ، فلا يعيره إلا أذناً صماء ..
حتى مر بصديقة حديثة السن .. فقالت :
— أما من سبيل إلى اجتذابك ؟

فابتسم لهذه العبارة المتواضعة ، واختارها ...
فطارت البنت فرحاً ، وجاءته بتين وعنب وكعك وعسل
ونبيذ ، وقدمت مع هذا كله نفسها .. فحانت منه التفاتة إلى
الحائط ، فقراً اسم « كريزيس » .. فسألها من تكون ؟ ..
— إن صاحبتى أجمل من حملت هذا الاسم ، لأنها
« كريزيس » الجليلية .

— أو تعرفينها ؟
— إنها صديقتى الكبيرة :
— إذن فحدثيني عنها ؟ ومن أين جاءت ؟ وأين تسكن ؟
ومن تحب ؟ قولى لى كل شىء عنها ! ..
فقالت له :

— إذن فأنت بها مستهام ؟ !
— هذا لا يعنيك .. ولكن حدثيني بكل ما تعرفينه عنها ..
أريد معرفة كل شىء .. وهل لها أصدقاء سواك ؟

— نعم، لها امرأة يهودية فقيرة من بلدها، تدعى «شيميريس»
— وأين تقطن؟ أريد أن أراها...

— إنها تنام في الغابة منذ عام بعد أن باعت بيتها.. ولكنني
أستطيع أن آخذك إليها، فهي أعرف منى بـ «كريس» ..

.....

وبعد مسير طويل، وقفت .. وقالت :

— هنا...

وكانت «شيميريس» جالسة القرفصاء على العشب، بين
شجرتين، وإلى جانبها تيس زائته بسلسلة ذهبية، هي آخر
ما بقي لديها من أيام الرخاء..
فقالت الصبية :

— قفي يا «شيميريس»، فهنا رجل له كلام معك..
فنظرت إليه اليهودية ولم تتحرك.. فدنا منها «ديمتريوس»
وسألها :

— أتعرفين «كريس»؟

— نعم..

— أترينها كثيراً؟

— نعم..

— أيمكنك أن تحدثني عنها ؟

— لا ..

— ولم لا ؟ أفلا يمكنك التحدث إلى عنها ؟

— لا ..

فدهشت الصبية .. وقالت لها :

— حديثه عنها مطمئنة ، فهو يحبها ، ويريد بها خيراً .

— إنى أرى جلياً أنه يحبها ، وما دام يحبها فهو يريد بها

شراً .. إذا كان يحبها ، فلن أتكلم !

فارتعش «ديمتريوس» من الغيظ ، ولكنه لزم الصمت ..

فقالت له اليهودية :

— هات يدك ! .. وسأنظر هل أصبت ؟ ...

وأخذت يده اليسرى وقلبتها على نور القمر . فقال لها

«ديمتريوس» :

— ماذا ترين ؟

— إنى أرى ... أفيمكننى أن أصف ما أرى ؟ .. وهل

تشكرنى على ذلك ؟ .. أو على الأقل هل تصدقنى ؟ .. إنى أرى

الهناءة كلها ، ولكن فى الماضى .. وأرى أيضاً الحب كله ،

ولكنه يغيب فى الدم ...

— دمی ؟

— دم امرأة ، ثم دم امرأة أخرى ، ثم دمك بعد حين ...

فهز « ديمتريوس » كتفيه .. وكانت الصبية في تلك الأثناء قد

فرت من الهلع .. فقالت « شيميريس » :

— إنها خافت ، ومع ذلك فليس هذا يعينها ولا يعينني ..

فدع المقادير تجري في أعتها ، ما دام ليس في وسعنا أن نقف

عجلة الحوادث .. وهذا مكتوب عليك قبل أن تولد ، فاذهب .

فلن أتكلم بعد .

وأفلتت يده .

(٧)

الحب والموت

« دم امرأة ، ثم دم امرأة أخرى ، ثم دمك بعد حين » ...
كان « ديمتريوس » يردد هذه الكلمات وهو يكاد يختنق .
كريزيس ! كريزيس ! كريزيس !
وكان ذلك الاسم يضرب فيه كالحمى ، وهو يقول لنفسه :
— أريد أن أرضيها ، وأن أتسلط عليها ، فأخذها بين
ذراعي ، وأهرب بها إلى مكان بعيد .. إلى سوريا ، إلى بلاد
الإغريق ، إلى روما .. إلى أى مكان ليست لى فيه عشيقات ،
ولا لها فيه عشاق .. هذا ما أريده حالاً دون إهمال ..
والآن فلاذهبن فى طلب المشط ، هديتها الثانية ..
وخف فى سيره

وكانت زوجة كبير الكهنة تجلس بعد غروب الشمس على

مقعد رخامى يشرف على البحر ، ووراءها الغابة .. وكان
ديمتريوس يعلم ذلك ، لأن هذه المرأة - وكانت مصرية تدعى
« تونى » - هامت به يوماً ما ، وقالت له : إذا أردت أن ترانى
فتعال إلى هناك .

فذهب إليها فألفاها جالسة ، مغمضة العينين ، مستندة إلى
الخلف ، مرسله اليدين .. وكانت فى ثوب خفيف أرجوانى
لامع ، لا نقش ولا زخرف فيه خلا نجمين أسودين على الثديين ،
سمراء غليظة الشفتين . رشيقة القامة ، نحيلة الخصر ، وكانت
ناعسة مستغرقة فى حلمها ..

جلس ديمتريوس إلى جانبها فى سكون ، ومد يده فى خفة
إلى غلاتها المفتوحة من جانبها حتى خصرها ، فلم تستيقظ
تونى أثناء ذلك ، وتغير حلمها شيئاً فشيئاً ولم ينته ، واشتد
تنفسها ، وتمتت بحملة طويلة مبهمة ، ومالت برأسها الملتهب ،
فسحب ديمتريوس يده متلطفاً ...

وكان البحر الأبدى يتموج صاعداً حتى يتاخم آخره نجوم
الليل .. أو كأنه صدر كاهنة أخرى يمتد حتى النجوم .. وكان
ضوء القمر يزهو على صفحة البحر .. وظلت تونى نائمة ،
ورأسها مائل ، يكاد جسمها يكون عارياً من خلال غلاتها

الملونة .. وكان نور القمر يقترب منها حتى ارتفع على جسمها
ولامس شعرها ، فبداله المشط المملوكى الذى طلبته كريزيس ..
فأمسك المثال وجه تونى بين يديه ، ووجهه إليه ، ففتحت
عينها النجلاوين :

— ديمتريوس ! .. ديمتريوس ! .. أهذا أنت ؟ ..
وألقت بذراعيها من حوله ، وهى تغمغم بصوت يصدح
بهنائها :

— أواه ! .. أهذا أنت قد أتيت أخيراً ؟ ! أنت هنا ! ..
أأنت ديمتريوس الذى يوقظنى بين يديه ؟ .. أأنت ابن
معبودتى ، يا إله حياتى ؟ ! ..

فتراجع ديمتريوس .. فلحقت به فى وثبة واحدة :
— مكانك ! .. لا تخف شيئاً ! .. لست بالمرأة التى يخافها
رجل مثلك ، لأنها تحوطها سلطة الكاهن الأعظم .. فانس
لقبى يا ديمتريوس ومكانتى .. لا يبق للمراة اسم وهى بين
يدى حبيبتها .. لست أنا التى تفر عنها ، وما أنا إلا امرأة تحبك ،
ولا يعلو صدرها الآن ويهبط إلا بذكرك .

فلم ينبس ديمتريوس .. واستطردت :
— إنى أعرف من تحبك ، ولا أطمع فى أن أكون

خليلتك . ولست أطلع إلى منافسة مليكتي ، لا . . فافعل
بي يا ديمتريوس ما تشاء . . خذني كأقل فتاة مسكينة من
اللواتي ينتظرن على طول الطريق حسنة خب محتلس . والواقع
أن الآلهة لم تهبنى ما وهبته أولئك النساء . . فأنت على الأقل
لك الجمال الذي تفوح منه رائحة الآلهة ! . .

فنظر إليها ديمتريوس في صميمها . . وقال :

— وما الذي تزعمين يا شقية أنه يفوح من الآلهة غير . . .

— الحب . . .

— أو الموت ! . .

فهبّت قائمة :

— ماذا تريد أن تقول ؟ الموت . . نعم . . الموت . .

ولكن ما أبعد الموت عني ! . . إنه بعيد جداً بُعد ستين عاماً . .

ثم أفكر فيه أو يخطر لي . . فلماذا تذكر الموت يا ديمتريوس ؟

فقال ببساطة :

— الموت هذا المساء .

فانفجرت ضاحكة من الخوف وهي تقول :

— هذا المساء ؟ لا ! لا ! . من قال ذلك ؟ . ولم

أموت ؟ . . أجبني ! . تكلم ! إن هذا تهكم مرعب ! . .

— حُكِّم عليك ..

— ممن ؟ ..

— من القدر المحتوم ..

— وكيف عرفت ؟

— لأن لى فى قدركَ يدًا ..

— وهل يطلب قدرى أن أموت ؟

— يطلب قدركَ أن تموتى الساعة ، على هذا المقعد ، ييدى ..

وأمسك بمرققيها ، فبردت أطرافها ، وقالت فى فزع :

— ديمتريوس ! .. إني لن أصيح .. لن أنادى أحداً ..

فدعنى أتكلم ...

ثم مسحت جبينها الذى كان يتصبب عرقاً :

— إذا كان الموت يأتينى منك ، فخبذا الموت ! .. إنه

سيحلولى ، وأقبله ، وأريده .. ولكن اسمع ..

ثم جذبته إلى ظلام الغابة الحالك ، وهى تتعثر بكل حجر :

— إذا كان فى يديك كل ما تعطينا الآلهة .. الرعشة التى

تمدنا بالحياة ، والتى تتمتعها منا .. فامددها يا ديمتريوس :

يد الحب ، ويد الموت .. كى أقضى نحبي دون أسف ..

فالتفت إليها صامتاً ، فقرأت فى عينيه الرضا .. فتجلت

مرة ثانية، ورفعت وجهها جديداً أشرق فيه الحب فوق الخوف ..
ولم تكلمه .. ولكن صوت تنفسها كان يغنى خافتاً ، كأنها
دخلت في المهوى قبل العناق وفازت بمنها ، في سعادة أبدية ...
وسها عشيقها عن قتلها ، فصاحت به :

— اقتلني !! اقتلني إذن !! ماذا تنتظر يا ديمتريوس ؟ ..
فهم قليلاً متكئاً على راحة يده ، ونظر إلى توني التي
كانت شاخصة إليه بعينين واسعتين زائغتين ، واستل من
شعرها دبوساً ذهبياً طويلاً ، أغمدته تحت ثديها الأيسر ...
ثم قص شعرها ، وأخذ المشط نجباءً في ثوبه ، ومضى
لطيفته ، في طلب عقد أفرو ديت ، غير تارك للفكر عليه من
سلطان ...

سرقة العقيد

لم يدخل الهيكل من بابه الكبير ، بل من باب خلفي خفي في الغابة بين قبور عظماء الكهنة .. ونزل القبو ، فهذأت رطوبة الأرض من ثأثرته . وقصد الساحة التي أقيم فيها تمثال المعبودة أفروديت . وكانت أشعة القمر تسطع عليها فيتلاًلاً عقدتها ذو السبعة الصفوف حول نحرها . وكانت تتمع بين ثدييها لؤلؤة فريدة كبيرة ، كأنها هلال يزهو بين سحابتين مستديرتين .. تلك كانت الجواهر المقدسة ، التي تكونت من قطرات الماء المتساقطة من المحارة التي ولدت فيها « الزهرة » إلهة الجمال ..

ففسى ديمتريوس نفسه وهو ينظر إلى أفروديت ، وخيل إليه أنها تجسدت امرأة وتجلت له ، ونسى أنها صنع يده . ذلك أن هوة سحيفة تفصل ديمتريوس الفنان ، عن ديمتريوس الفاجر الواقف الآن هنا .. فبسط ذراعيه إليها ،

وتتم بصلاة خافتة . وتقدم إليها الهوينى ، ولمس إصبع قدمها
الوردية ، لكي يتأكد أنها التمثال ! . وصعد إلى جانبها مأخوذاً
بجمالها ، ووضع يديه على كتفيها المرمريتين ، وأنعم النظر في
عينها النجلاوين ، فارتعد ، وخارت قواه ، وظلت يدها تلمسان
ذراعيها العاريتين ، وتضغطان خصرها الصلب ، حتى نزل بهما
إلى ركبتيهما ، ثم داعب جيدها ، ورفع العقد ، وأخذ يعبث
بلائته على ضوء القمر ، يخاف ، وأعادته ثانية ، وقبل يد المعبودة
وعنقها وفهما العنابي المنفرج قليلاً . . وتراجع إلى آخر القاعدة
ونظر بحنان إلى رأس المعبودة ، فتذكر سبب قدومه ، واحمر
خجلاً ، واعتذر لنفسه عن جنونه بكريزيس ، وفسره بأنه
اضطراب عصبي مرضى . . وظل يتأمل أفروديت باحثاً عن
نظراتها ، فمر الليل ، حتى مطلع الفجر ، وسطع التمثال تحت
أشعة الشمس الذهبية .

وكانت قد هبت في خارج الهيكل عاصفة من أصوات العصفير
والطيور الصادرة في الغاب ، وأصوات نساء ضاحكات وراء
الأسوار . . ونشطت حركة النهار ، وسمع ديمتريوس وقع
خطى على درج المعبد الخارجى ، فتذكر أن اليوم يوم تقديم
القرايين إلى « أفروديت » ، وفيه تقدم الفتيات إلى المعبودة

ندورهن .. فهم ديمتريوس بالفرار ...

وكان بقاعدة تمثال أفروديت مخبأً يُفتح من الخلف
بطريقة سرية لا يعرفها غير الكهنة وديمتريوس .. فكمن فيه
ديمتريوس .

وفتحت الأبواب الذهبية ، ودخل موكب المصلين ، وتقدم
الموكب ثلاثون غانية يحملن سلالاً مملوءة ورداً ، وحمائم
أبيض ، وأقنعة شفافة ، وأدوات زينة ثمينة .. وكن يرتلن
بأصوات رخيمة .

ودنون من التمثال ، فنهن من قدمت لأفروديت حجاباً
أزرق من نسج يديها ، ومنهن من قدمت إليها طاقة ورد ،
أو سواراً فضياً في شكل ثعبان ، ومنهن من قدمت إليها حماماً
من أزميز ، ومنهن من نذرت نفسها للهيكل .

وكادت الحفلة تنتهي ، والموكب ينفض .. فدخلت امرأة
لا تحمل شيئاً ، فظن الجميع أنها ستهب المعبودة جمالها ، فنظر
إليها الكاهن منتظراً أن تتكلم ، فأقبلت ، ووهبت مرآتها
ومشطها وعقدها الزمردى ... فلم يفت ديمتريوس حركة
من حركاتها ، وعصف بقلبه الهوى .. فظل متردداً ..
وكان يزعم من هنيهة أنه يرى من جنون البارحة ، وأن

لا شيء يلتقي به مرة أخرى في طريق كريزيس .. ولكنه
تبين خطأه في زعمه ، ولم يحسب لها حساباً ، فلم تنفعه
إرادته في التغلب على الاضطراب الذي شعر به عند دخول
كريزيس ، وكأنه عبدٌ شَدَّ وثاقه إلى مركبة النصر .. فأيقن
أن الهرب ضرب من المحال .

وانتظر ديمتريوس حتى خلا المعبد ، فصعد إلى التمثال
هادئاً ، واستل عقد الآلئ الأصيله ، ودسه في جيبه ،
وخرج دون أن يؤنبه الضمير ...

غـرور

عرفت كريسيس خلال مأدبة أقامتها الغانية المشهورة
 باكيس ، أن ديمتريوس قد نفذ إرادتها ، فسرقت المرأة ، فهو
 لا شك قد قتل أيضاً توفى امرأة الكاهن الأعظم ، واعتدى على
 حرمة المعبودة المقدسة ، لأن إنساناً في مثل منزلته يعد السرقة
 أدناً من القتل والاعتداء .. فاطمأنت إلى انتصارها على هذا
 الرجل الذي كان طليقاً لا يتقيد ، صارماً لا يتأثر ، كافراً بالحب
 لا يشعر .. وكان الفضل للمرأة التي غلبته : كريسيس ،
 (ساره) ، من بلاد « الجليل » . . لقد فعل هذا كله من
 أجلها ، وهو عمل لم يأت بمثله عاشق من قبل لعشيقتة ..
 ها هي ذى قد انتصرت على ديمتريوس المحبوب ، الحلم الذى
 لا يتحقق ، والرجاء الذى لا يرجى لقلوب النساء ، فقد عرض نفسه
 للخطر والمهانة والويل ، طائعاً مختاراً ..

فأصبحت الآن تعبده ، كأن الجرائم الثلاث ترتفع في
نظرها إلى أعمال البطولة الخالدة ، التي لا تقوم بكل ما تهبه
من حبها . . وسبح فكرها فيه وهي تنظر إلى مدينة
الإسكندرية ، فعنّ لها فجأة خاطر جديد ، كادت تجنّ له . .
وأخذت تناجي نفسها بقولها : إن ديمتريوس قد فعل هذا كله
من أجل ، فلم لا يقتل الأميرة برينيس ، وهو الجدير بالملك ؟ . .
إذن أكون ملكة الإسكندرية ، حلم الأحلام ، وتاج كل مجد
منذ ثلاثة آلاف عام ! . . وأكون سلطانة الدلتا ، وأفرع
النيل السبعة حتى منابعه . . وأكون أميرة : صائس ، وبوباسطة ،
وهليوبوليس ، وطيبة ، وديسبوليس ، والشلالات ، وجزيرة
أرجو ، ومروى ، وأنس الوجود . . والولية الأمرة في مائتين
وألف معبد تردد فيها الصلاة للآلهة جميعاً . .

كل هذا المعلوم ، وكل ما سواه من المجهول ، كل هذا
الملك العزيز ، وهذا السلطان على وادى النيل العريق ، سيصبح
متاعاً للغاية كريسيس ؟ ! ورفعت ذراعيها ، وهي تكاد تختنق ،
من نشوة المجد ، كأنها لمست بأناملها عنان السماء . . .
وفي تلك الحركة ، رأت عن يسارها ، طائراً كبيراً ، أسود
اللون ، مديد الأجنحة ، يحلق متجهماً إلى البحر الزاخر . . .

(١٠)

حلم ديمتريوس

رجع ديمتريوس إلى بيته حاملاً المرأة والمشط والعقد اللؤلؤى .. فرأى في منامه حاملاً تمثلت فيه مقابله لكريزيس أول مرة على رصيف الإسكندرية ، رآها وهي تدعوه لأن يتبعها ، فسايرها ، ودخلا منزلها ، وزارا الغرف الأربع التي يتألف منها . وعرضت عليه كتباً قديمة قيمة في الآداب والفنون ، وتماثيل مرمرية نادرة .. ووجد في الغرفة الأخيرة ثلاثة أسرار مفروشة ، فحدث ديمتريوس نفسه بقوله : « أهذا منتهى حياة الإنسان ؟ .. أتراني اجتزت هذه الغرف الثلاث لأقف هنا في غرفة الغرام ، التي لن أبرحها حتى أقضى ليلتي نائماً ممدداً كأنني في قبر ؟ ! »

فخاطبته كريزيس ، وهي ترفع ذراعيها ، مشبكة يديها فوق رأسها ، مبتسمة :

— أيها الحبيب! .. لقد طلبتني فأتيت إليك .. فانظر
إليَّ الآن .. يا حبيبي .. هيت لك .. ولكن ليس حالاً! ..
فقد وعدتك من قبل بأن أغني لك ، فلا بد من الوفاء ..
ثم جثت عند قدميه ، وبدأت تغني من نشيد الإنشاد
لسليمان الحكيم .. ثم بدأت ترقص ، فأخذ جسمها يتلوى
ويرتعش ، فعانقها عناقاً كله لذة وهيام وسحر .. وكان يحرق
فيها ، لكيما يبدع من وقفها تمثالاً جديداً .

.....
وفي اليوم التالي ذاع خبر سرقة امرأة باكيس ، فقرحت
الغواني اللواتي كن يحسدنها عليها ، وأخذن يتكلمن عن
السرقة ، وعمن يكون السارق .. وتناقلت الألسن خبر
مصرع امرأة الكاهن الأكبر ، فساد الجمهور اضطراب
شديد ، وزاد في جزعهم وهلعهم نبأ سرقة العقد اللؤلؤي
الذي كان يطوق عنق المعبودة أفروديت ، وظلوا في هرج
ومرج نائرين حائرين .

وتفرق القوم في ساحات المدينة يتناقلون الأخبار
ويذيعونها . وظل رجل وامرأة هما اللذين يعرفان سر اضطراب
الجماهير ، وهما سبب هذه الجرائم : ديمتريوس ، وكريزيس .

وكان الرجل جالساً على صخرة بجوار الميناء ، وكانت المرأة واقفة في آخر الميدان . . . فرأت كريزيس شبح ديمتريوس ، وشعرت بوجوده دون أن تتبينه جلياً ، فعدت إليه ، تجري ، ثمة من الكبرياء والاشتهاء . . . وصاحت به :

— إنك إذن قد وفيت . . . إنك قد وفيت ! . . .

فأجابها ببساطة :

— نعم ، لقد أنفذت رغبتك . . .

فالت بنفسيها على ركبتيه ، وقبلته في عناق جنوني ، وهي

تغمغم قائلة :

— أحبك . . . أحبك . . . ولم أشعر قط بمثل ما أشعر به

الآن ! . . . أيتها الآلهة . . . لقد عرفت حقيقة الحب ! . . . انظر

يا حبيبي ، إنني أعطيك ما لم أعطه أحداً من قبلك . . . أنا التي لم

أشته أحداً ، ما كنت أظن أنني أخضع لك هكذا وشيكاً . . .

ولن أكتفي بهبة الجسد ، بل سأهديك أحسن وأخص وأطهر

ما أملك ، وهو روحى البكر . . . فيها نرحل عن هذه المدينة

يا ديمتريوس ونتوار في مكان ليس فيه سوانا . . . لنعيش هناك

أياماً لم يعشها قبلنا أحد . . . فما من عاشق فعل لأجل امرأة ما فعلته

لأجلي . . . وما من امرأة أحبت حبي إياك . . . هذا مستحيل

لا يُصَدِّقَ .. ولا أستطيع أن أتكلّم أكثر من ذلك ، فالفرح
يخنقني .. انظر ، إني أبكي ، وأعرف معنى هذا البكاء ، فهو
منتهى الهناء .. ولكن لم لا تجيب ؟ لم تلزم الصمت عني ؟ ! ..
ألا فقبّلني يا حبيبي ! ..

فلم يحرك ديمتريوس ساكنًا ، وأنهض كريزيس ، وتفض
ثيابه ، وقال بصوت هادئ :
— كلاً .. وداعاً ! ..

وعاد أدراجة الهوينا .. فوقفت كريزيس مشدوهة
فاغرة فاهها ، ويدها مرتختتان بجوارها :

— ماذا ؟ .. ماذا ؟ .. ماذا تقول ! ؟ ..

— أقول لك : وداعاً ! ..

— ولكن .. ولكن .. أأنت أنت الذي ... ؟

— بلى .. وكنت قد وعدتك بذلك .

— إذن .. فلا أفهم ..

— سواء لدى أفهمت أم لم تفهمي ، فإنّي أترك هذا اللغز

الصغير لخيالك .. وإذا كنت صادقة فيما تقولين ، فسيطول

تفكيرك ، وتشتد حيرتك .. وهذا فراق بيني وبينك !

— ديمتريوس ! .. ماذا أسمع ؟ ؟ من أين أتيت بهذه

اللهجة؟ .. أنت حقاً الذى يتكلم؟! إبنى أضرع إليك أن
تفصح قليلاً .. ماذا حدث بيننا؟! إن هذا يكاد يحملنى على أن
أضرب الجدار برأسى حتى أحطم رأسى ...

— أنا بحاجة إلى أن أعيد عليك القول مائة مرة؟! أجل ..
إبنى أخذت المرأة ، وقتلت الكاهنة توفى لأسلها المشط
الأثرى ، وسرقت العقد اللؤلؤى ذا الفروع السبعة .. وكان
علىَّ أن أقدم إليك هذه الهدايا الثلاث جزاء تضحية واحدة
منك ، وقد قدرتها ثمنًا ... أليس كذلك؟ .. والآن أصبحت
لا أقدر لها هذا الثمن الباهظ .. فلن أطلب منك شيئاً ، فافعل
بدورك مثلى ، ولنفترق! .. فواجباً من أنك لا تفهمين موقفاً
بسيطاً واضحاً إلى هذا الحد! ..

— احتفظ بهداياك .. هل تحسبنى أفكر فيها؟ وهل
طلبتها منك؟ .. هداياك؟! .. ماذا أفعل بها؟! إنك أنت الذى
أريد .. أنت وحدك! ..

— نعم .. أعلم ذلك .. ولكننى أعيد عليك القول مرة
أخرى: إبنى أنا الذى لا يريد! .. وقبول الطرفين لا مندوحة
عنه للقاء العشيقين .. فلا أستطيع بعد تفسيراً لرغبتى عنك ،
وإلا خشيت أن تؤلمك كلماتى ..

— هل حدثك أحدٌ عني ؟ .

— كلا .

— لا بد أنهم حدثوك عني .. لا تنكر ذلك .. لقد رموني
عندك بالسوء ... فلي أعداء ألداء يا ديمتريوس .. فعليك
ألا تصغى إليهم ، فهم — وحق الآلهة — من القوم الكاذبين !
— إنني لا أعرف أعداءك .

— صدقتي ، صدقتي يا حبيبي .. إنني لا أنتظر منك سواك ..
فخدق ديمتريوس النظر إليها ، وقال :

— لقد فات الأوان .. وحظيت بك ..

— إنك تهذى ! وإلا متى كان ذلك ؟ وأين ؟ وكيف ؟

— لقد حظيت بك على رغمك .. وكل ما كنت أتوقعه

منك نلته على غفلة منك .. والبلد الذي كنت تريد أن
نسير إليه سوياً قد أوصلتني إليه ، في الحلم ، ليلة أمس ! ..

ولشدة ما كنت فتانة يا كريزيس ! .. لقد عدت من ذلك

البلد ، ولن تستطيع إرادة بشرية أن تسوقني إلى رؤيته مرة

أخرى .. ولست معتوها حتى أضيع على نفسي ذكرى سعيدة ،

لا تتكرر سعادتها ، والفضل لك في هذا ، فقد أغناني ظلك

عن جسديك ، وخيالك عن حقيقتك ! ..

فلطمت كرىيس صديها بكفها ، وصرخت :

— هذا فظيع ! . هذا فظيع ! . إنه يجرؤ على هذه
الدعوى ، ويرتاح لها ! ! .

— إنك تسرعت فى الحكم . . وقد قلت لك : إننى حاملت
بك . . فهل أنت واثقة من أننى كنت نائماً ؟ . . وقلت لك : إننى
كنت سعيداً . . فهل تحسبين السعادة وقفاً على الرعشة البدنية
الداعرة ؟ . . إنك باتخاذك هذا الموقف المتخاذل تقللين من
شأنك وتحقرين من قدرك . . إذ أنك لا تعرفين ألوان السعادة
التي تنبت تحت قدميك ؟ . وهل تزعمين أنه يصعب على الذى
ابتدع أفروديت أن يتخيل الخطوة بك ؟ . . إنى وإن كنت
قد استمتعت بك فى الخيال . . لكننى لن أسمح لك بأن
تفسدى على خيالى ! ! .

— وما نصيبى أنا . . أنا التي تحبك . . فيما أسمع منك من
الفظائع ؟ ! وهل قاسمتك السعادة التي سلبتنيها — أيها اللص —
فى حالك ؟ . . وهل سمع إنسان أن محباً كان من الأناية بحيث
يغتصب الحب كله ويستأثر به من دون المرأة التي تحبه ؟ ! .
إن هذا يحيرنى ويكاد يسلبنى رشدى ! . . فتحول ديمتريوس
عن نعمته الساخرة ، وقال وصوته يرتجف قليلاً :

— وهل رثيت لحالى عندما انتهزت فرصة اشتهاى ،
فأصررت فى ساعة فتنتى ولوعتى وذهولى على أن أرتكب ثلاثة
فعال منكورة ، كفيلة بأن تحطم حياتى ؟ . وخليقة حتماً بأن
تترك لى ذكرى العار والشنار على ممر الأجيال ؟ !

— لم أفعل ذلك إلا لىكى أجتذبك إلى . . وما كنت
لأحظى بحبك لو أننى بادرت فأسامتك جسدى ورضخت لك . .
— إذن فقد أشبعت كبرياءك وطموحك ! وتملكتى ،
ولو فترة من دهرك ، فى إसार العبودية التى فرضتها على . . .
فتألمى الآن بدورك . . إننى اليوم أستخلص منك نفسى !

— ديمتريوس . . إننى قد عبدتك ! . .

— نعم . . إن أحداً عبد الآخر . . وإنما هو الثانى الذى
يجب ! . . العبودية ؟ ! العبودية ؟ ! هذا هو الاسم الحقيقى
للولع . . . وليس للنساء إلا حلم واحد ، وفكرة فى الذهن
واحدة ، هى إخضاع قوة الرجل بضعفهن ، والتسلط على
إدراكه بخفتن . . والذى تردنه حين تنهد أثداً وكن ليس أن
تحبين أو أن تحاولن الحب ، ولكنكن تردن أن تربطن رجلاً
إلى كعبكن ، وأن تحنين هامة رأسه حتى تطأنها بأقدامكن ! . .
فإذا لم تستطعن التغلب عليه ، خفضتن له جناحكن ، وقبَلتنَّ

الفم الذى يسببكن ، واليد التى تصفعكن ، بل والقدم التى
تسحقكن ! .. إن الرجل الذى يأبى تقبيل أقدامكن الحافية
يقضى كل لباناتكن إذا ما اغتصب حبكن اغتصاباً .. والرجل
الذى لا يبكى عند ما تهجرن الدار كفيل بأن يحركن من
شعوركن ... وصفوة القول أنكن إذا لم تستطعن أن تخضعن
الرجل ، فعذركن الوحيد هو الخضوع له ...

— أواه ! اضربنى إذا شئت ، وأحببنى بعد ذلك ...
ثم ضمته إليها فجأة ، بحيث لم يستطع الإفلات من قبلتها
إلا بالجهد الجهيد .. فقال لها :

— لات حين ضرب وحب !. إننى أمقتك .. فدعبنى !.
ولكن كرىزيس تعلقت بمعطفه قائلة :

— لا تكذب ! فأنت تعبدنى ! . ونفسك مترعة بحبى !
ولكنك تحجل من أنك خضعت .. وتبتذلك من أنك
سرقت وقتلت .. فاسمعنى .. اسمعنى يا حبيبى .. إذا لم تجد
ما يعزى كبرياءك فىنى أقسم لك أن أقوم بأية تضحية بعد
اجتماعنا المأمول .

فتفرس فيها ديمتريوس وقال لها بدوره :

— وبم تقسمين ؟

— أقسم بأفروديت كما أقسمت أنت .
— إنك لا تؤمنين بأفروديت ، فأقسمي بالكان
الأسمى « يهوه » .

فابيض وجه الجليلية ، وقالت :

— لا يمكننى أن أحلف باسمه الكريم .

— أترفضين ؟

— إنه لقسم عظيم !

— ولذلك أريده !

فترددت لحظة ، ثم قالت بصوت خافت :

— أقسم باسمه الكريم .. فإذا تطلب منى ياديمتريوس ؟

فسكت . فقالت له :

— تكلم يا حبيبي .. قل سريعاً .. إننى خائفة ..

— أطلب شيئاً تافهاً ..

— ماهو ؟

— لست أسألك ثلاث هدايا .. فهذا لم تجر به العادة

والعرف .. ولكن يمكننى أن أطلب إليك قبول الهدايا ..

أليس كذلك ؟

فقالت « كريزيس » فرحة :

— بكل تأكيد !

— هذه هي المرأة ، وهذا هو المشط ، وهذا هو العقد . .

التي سلبتها لأجلك ، والتي ما كنت تنوين التمتع بها ، لأنه لا
يمكن الظهور على مشهد من الناس بهذه الأشياء المعروفة
المحصلة بالسرقة والقتل . أليس كذلك ؟

— وما الذي ترى إليه ؟

— لقد فكرت في ذلك . . فرأيت أنك ما دفعتني إلى

ارتكاب هذه الجرائم الثلاث إلا لتشبعي غرورك وقسوتك . .

فالآن أطلب إليك أن تلبسيها !

— ماذا ؟

— أجل ! . . تلبسينها ، وتغرين بها في المدينة ، فيقبض

عليك الناس ويسامونك إلى الشرطة . . وعندئذ يكون لك

ما تريد . . عند ما أزورك في السجن قبل مطلع الشمس .

اليوم المشهود

لما سمعت كريزيس ذلك ، هزت كتفها وقالت لنفسها
إنها ليست من السذاجة بحيث تفي بهذا الوعد الخطير، ولا تخنت
بقسمها .. غير أنها سرعان ما شاققتها رؤية ما اغتتمه ديمتريوس
حباً فيه ، وأن تلمسه بيدها ، وأن تلعب به في أشعة الشمس ،
وأن تتملكه .. ولو لحظة واحدة من دهرها ، لتشعر بلذة
انتصارها وقوة سلطانها .

أما التسلط على ديمتريوس فلن تعدم وسيلة أخرى إليه ،
فتملى إرادتها . وكيف يزعم أنه قطع علاقته بها على حين
أن غراماً كغرامه لا تخمد جذوته في قلب الرجل تمام الخمود؟!
فلا توجد حبيبة إلا ولها ركن خاص ، خفي أو جلي ، في فؤاد
الطيب .. وقد يحدث أن مجرد لقاء عارض مع حبيبة قديمة ،
أو مكروهة ، أو مهجورة ، يذكى في القلب ناراً ، ويولد حباً

جديداً أشد استعاراً! .. وكريزيس خير من يعرف ذلك .
ومع أن حبها قوى شديد فليس جنونها يبالغ درجة المجازفة
بحياتها لتفتن ديمتريوس ..

واستعرضت ما طلبه منها ديمتريوس ، فثار فيها حب
الظهور ، وتمثلت نفسها واقفة أمام جمهور الإسكندرية ، وفي
يدها المرأة التي نظرت فيها سافو ، وقد توج شعرها المشط
الملكي ، وزان نحرها عقد أفروديت .. كما ذكرت أنها ستلقى
بعد ذلك من المساء حتى مطلع الفجر حباً مجنوناً لم تعرف ثورته
ولا سورته امرأة قط .. فإذا ما تنصف اليوم التالى ماتت دون
مقاومة ... فياله من مصير منقطع النظير ! .. ثم أغمضت
عينها قائلة لنفسها إنها لا تريد الخضوع لهذا الإغراء ..

بيد أنها اخترقت حى « زاكوتيس » وقصدت حديقة
« هرميس » حيث خبأ ديمتريوس مسروقاته ، بين القبور
المهجورة ، ودخلت الحديقة والسكون مخيم .. وهى ترتجف
لكل عثرة فى طريقها .. وكان الهواء يحمل رمالاً ناعمة تتغلغل
فى شعرها .. ولما صارت بإزاء الصنم الذى له رأس ابن آوى
اصفر وجهها ، ونظرت حولها حذرة وجللة ، لتستوثق من
انفرادها .. ثم أخذت من قدم الصنم المكسورة عقد أفروديت

وطوقت به عنقها ، وأغمضت عينيها لتشعر ببرد اللآلئ على صدرها العارى ، ووضعت اللؤلؤة الفريدة فى دفء ثديها ، ثم أمسكت بالمشط العاجى وزانت به شعرها ، ثم أخذت المرأة الفضية وطالعت فيها محياها ، فرأت بريق الفوز فى عينيها .. ثم أسدلت حجابها على رأسها ، وخرجت من الحديقة دون أن تخلع الحلى المخيفة ...

كان الحزن سائداً المدينة خوف انتقام الآلهة من جراء هذه الجرائم ... فاخترقت كرىزيس غمار تلك الجماهير المضطربة وهى مستغرقة فى حلمها . وكانت جلبة الخلائق المستمرة وضجيجها يضاعفان من هدير البحر الهاائج ... ولما وصلت إلى جزيرة الفنار ، نضت عنها حجابها ، فظهرت عارية كالآلهة تحت أشعة الفنار الحمراء ، فتلاأت حليها كلها .. فانبعث فى لحظة واحدة مائة ألف صوت تهتف معاً : — أفروديت ! ... أفروديت ! .

وتسلق البعض الصخور ، وارتقى البعض ساريات المراكب ، وصعد آخرون الأبراج المحصنة .. فغمرت جزيرة الفنار بألوف من الخلق تسابقوا ليشهدوا كرىزيس فى أبهتها ، وهى تصعد إلى أعلى الفنار ، كأنها تصعد إلى عنان السماء

(١٢)

ليلة كـريزيس

قال السجنان الشيخ لكـريزيس وهو يحاورها :
— أراك حبيبة الآلهة .. ولو أننى — أنا العبد الفقير — كنت
قد ارتكبت جزءاً من مائة جزء من الجرائم التى اقترقتها لعقلت
قدمى ، ولقُطِعَ جسدى ضرباً بالسياط ولزق لحمى بالكلاّبات
ولصب الخل فى خياشيمى .. فإذا ما قضيتُ بعد هذا العذاب
ألقيتُ جثتى طعاماً للضباع الجائعة فى الوادى القفر .. أما أنت ،
أنت التى سرقت وقتلت ودنست كل مقدس فقد آثروك
بِسْمٍ نباتى مريح ، وأعدوا لك غرفة أنيقة .. فلا شك فى أن
لك صلة بالقصر ..

فقالت له كـريزيس :

— هات لى تيناً ، فقد جف حلقى .. فجاءها باثنتى عشرة
تينة ناضجة فى سلة خضراء ، وتركها وحدها .. فجلست ، ثم

عادت فوقفت ، وضربت الحائط بقبضتيها .. وحلت شعرها ،
ثم عادت ففقتته ، ثم اقتربت من النافذة واتكأت على حاقها .
وكان القمر يسطع في سماء الليل الصافية ، فرجعت بها
الذكرى إلى ليلة هجرت أرض الجليل ، منذ سبع سنين ،
وتذكرت الفرسان الذين اختطفوها ، وذكّرت الأشجار
والغدران والسوسن النامي فوق الجبال .. ثم عرض لها شبح
الموت فجأة ، فأنكرته ، وصاحت :

— أوّاه ..! ماذا فعلت ؟.. لماذا قابلت هذا الرجل ؟ لماذا
فتنت به ؟ كيف لا أندم على ذلك ؟ فيا لهذا القضاء المروع ..
إمّا أن أعيش بغير حب ، وإمّا أن يطردني الحب من الحياة !
ومرت بذهنها آيات من التوراة في الحب وآلامه ، والدعارة
وحزنها .. فارتعشت ، وأسندت رأسها بيديها تحاول أن تجمع
شتات فكرها ، فحبل إليها أنها تمسك بجمجمة .. ومرت
بكفيها على جسمها فأحست كأنها تلمس هيكلًا عظيمًا .. فثار
بها حب البقاء وأبت قبول فكرة الفناء ، فناء هذا الجمال
الرائع ، وهذا العقل النشط وهذه الحيوية التي تتدفق من
جسمها الغض .. وكيف أن هذا البدن الشائق سيفنى ويتعفن
وهو يفيض حياة حارة ..

وفتح الباب بهدوء .. ودخل ديمتريوس ... فاندفعت
إليه كريزيس صائحة :

— ديمتريوس ! ..

ولما رأت في عينيه الهدوء العميق ، برد الدم في عروقها ،
فقد كانت تتوقع حركة عطف عليها .. فلم يبرح مكانه ، وظل
ساكنًا لحظة ، منتظرًا في أدب أن تطلب منه شيئًا .. ولكنها
لم تفعل ، فاستند إلى النافذة ، يشهد مطلع الفجر .. وكانت
كريزيس جالسة مطرقة على سريرها الواطيء ..

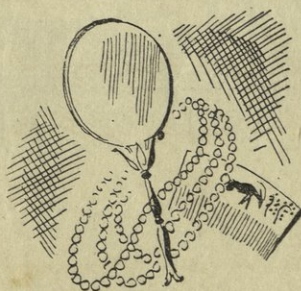
حدث ديمتريوس نفسه بقوله :

— ليت المأساة تنتهي هكذا .. فما أفجع اللهو ساعة
الموت .. وقد انتهت ، فيما يتعلق بي ، كل شيء .. وكنت أود
ألا تنتهي حياة كريزيس بهذه الخاتمة الأليمة ، لأن كل
ذنبا أنها صرحت بأطماع تحلم بها النساء عادة ، ولكنهن
يخفينها .. وددت أن لوسهلت لها سبيل الهرب إلى بلد آخر ،
غير أن الجريمة افترضت ، وصوت الشعب يطلب ضحية ،
والحب ثمنه الموت ...

ثم دخل الجلاد قائلاً ، وهو يبسم باحترام لصاحب الأميرة :

— ها هي ذى الكأس الصغيرة ..

فلزم ديمتريوس الصمت ، وأشاح بوجهه ، فرفعت
كريزيس رأسها ذاهلة .. فقال لها السجان :
— لا تخافى ولا تحزنى .. خذى الكأس .. ففيها الخلاص .
فمدت يدها ، وتناولتها متباطئة ، وأدنت شفة الكاس من
شفتيها ، واتسعت حدقتها ، وهى لا تحفض عن ديمتريوس
بصرها ، وشربت السم المذاب فى مخدر معسول ...
ولما تجرعت نصف الكأس قدمت نصفها الآخر إلى
ديمتريوس ، فأبأها ، فأنت على الكأس حتى الثمالة .. وأنغمضت
عينها إنغماضة الأبد . وقد أشرق وجهها بابتسامة فيها شيء
من الاحتقار لديمتريوس .. لأنها أسمى وأروع من ابتسامة
الحب .. لأنها ابتسامة الموت الساخر من عبث الحياة ...





كانت تدعى .. تاپیس

(١)

فى باب القمر

نحن فى حانة يتردد عليها البحارة ، على مقربة من باب القمر
بالإسكندرية ، يديرها زوجان وثنيان فقيران .. ولدت لهما
« تاييس » .. الموعودة — من الفن ثم من الحب ، ثم من
الهدى — بالخلود فى التاريخ .. وهى ما زالت تذكر أباهما
متربعا فى البهو ، طويلاً ، مهيباً ، هادئاً .. كأنه فرعون الذى كان
المتسولون العميان يمجّدونه فى أغانيهم المحزنة ، وهم جالسون
القرفصاء فى مفارق الطرق .. وتذكر أيضاً أمها النحيلة الكئيبة
تدرك البيت وتطوف به كقطعة جائعة ، يملأه صوتها المنكر
رعباً ، وعيناها البراقتان شرراً .. وقد شاع عنها أنها ساحرة
تتحول فى الليل إلى بومة لتلتقى بعشاقها ! .. غير أن تاييس
قد تحققت من بطلان هذه الإشاعة ، إذ عرفت عن أمها أنها
لم تشتغل قط بفنون السحر .. ولكنها كانت لشدة جشعها

وشحها ، تقضى سواد ليلها تحصى ، وتعيد إحصاء دخل يومها .
فأبوها الفاتر الهمة ، وأما البخيلة ، كلاهما ألقيا حبلا على
غاربها ، وتركها كدجاجة هائئة في حظيرة الطيور ، فهرت
مهارة لا تجارى فى سلب البحارة السكارى ، تتناول دراهمهم
من أحزمتهم وهى تباسطهم بالأغاني الصبائية ، وتمازحهم
بالكلمات الشنيعة التى كانت نجعل معناها . . . تنتقل من
ركبة إلى ركة ، فى القاعة المختنقة برائحة الخمر والتبغ . .
ثم تعود ويدأها الصغيرتان قابضتان على الدراهمات ، ووجهها
مندى برشاش الجمعة المتطائر ، مخدش من اللحي الكثة . .
وتجربى لشراء أقراص الشهد من العجوز الجالسة بجوار « مشنتها »
أمام باب القمر . .

وهذه المشاهد تتكرر كل يوم . حيث يذكر البحارة ما لاقوه
من الأخطار خلال اشتداد العاصفة ، ثم يلعبون « النرد »
و « الكعاب » . . ويطلبون وهم يحدفون أقذاح الجمعة . . .
فتستيقظ تاييس الطفلة — كل ليلة — على شغب السكارى
وعراكمهم ، وعلى ما يتساقط فوق الموائد من قذائف المجار
وسط الصخب والضجيج المتعالى . . وترى أحيانا على ضوء
المصابيح المدخنة : المدى تامل ، والدم يسيل . . .

فهي على ذلك لم تعرف الطيبة البشرية في ريق عمرها
إلا في شخص « أحس » الذي كانت تقاسمه المذلة .
وأحس هذا عبد البيت ، نوبى أشد سواداً من القدور
التي يعنى بفرکہا وتنظيفها . . . لكنه كان طيباً كالليل الذي
يقضى في نوم عميق لا يتخلله سهاد . وطالما وضع تاييس على
ركبتيه يقص عليها قصصاً عن مغاور مملوءة كنوزاً وقد بُنيت
لملوك أشجاء أعدموا الذين بنوها لهم ! . . . وكان في تلك
القصص أيضاً لصوص حذاق يتزوجون من بنات الملوك ،
وسراري يشيدن أهراماً ! . . .

فأحبت تاييس الصغيرة أحس ، حب الطفلة للأم والأب
والمرضع والكلب . وكانت تتبعه إلى قبو دنان الخمر وحظيرة
الدجاج الضامرة المتنفشة الريش التي ترفرف طائرة أمام مدية
الطاهي الزنجي بأسرع من فراخ النسور ! . . . وكان يصنع لها
طواحين وسفنًا بحجم راحة اليد . . . وكانت إحدى أذنيه
مصلومة من سوء معاملة سادته له . وقد غطت الندوب جسده
من الضرب ، ولكن كانت على وجهه مسحة الطمأنينة
وراحة الضمير ، وسداجة الطفولة ، يؤدي عمله الشاق صابراً ،
مترنماً بأناشيد تبعث في نفس البنت الرجة والأحلام . .

فإذا سأله عما يقصده بذكر الملائكة الأطهار الأبرار الجالسين
عند القبر يشهدون مجد المبعوث .. أجابها :

— أيتها الصغيرة، يا نور عيني ! إني أتغنى بذكر الملائكة
لأن سيدنا المسيح قد صعد إلى السماء !..

فقد كان أحس ، بين أولئك الوثنيين ، مسيحياً ، معمداً ،
في عهد تقاسى فيه الكنيسة ضروب الاضطهاد، تهدم الكنائس ،
وتحرق الكتب المقدسة ، وتصهر الأوعية الطاهرة ، والمسارح ،
ويجرد المسيحيون مما ملكت أيماهم ، يتوقعون الموت في كل
لحظة .. حتى ساد الرعب طوائف الإسكندرية ، وبلاد العرب ،
وبين النهرين ، وغيرها من بلاد الأمبراطورية الرومانية ..
وسلطت الشياطين ومطايا التعذيب والمخالب الحديدية والوحوش
الضارية على الأساقفة والعذارى تمزقهم شرمزق .. حتى جاء
« القديس أنطوان » فشدد قلوبهم ، ونفخ فيهم من روحه
المؤمننة الصبر على المكاره .. وكان اضطهاد العبيد خاصة أشد
وأأنكى ، فارتد كثير من منهم خوفاً ، وهرب آخرون إلى
الصحراء على أمل أن يعيشوا فيها نساكاً زاهدين ، أو لصوصاً
ناهبين !..

أما أحس فظل مع هذا كله يغشى كعادته المجتمعات ،

ويختلف إليها ، فزار المسجونين ، ودفن الشهداء ، واعترف
وجاهر مبتهجاً بدين المسيح .. ولما شاهد أنطوان العظيم قبل
رجوعه إلى الصحراء هذه الحمية الصادقة احتضن العبد الأسود ،
ومنحه قبلة السلام ...

وظل أحسن يحدث تاييس عما وعد الله المتقين من عباده ..
تكون لهم القصور والجنات ، ويأكلون أعناباً ورماتاً .. فقالت
معجبة : إنها تود أن لو أكلت من رمان الله تعالى .. فأجابها : إن
الذين عمدوا في يسوع هم وخدم الذين سيذوقون فاكهة السماء .
فطلبت أن تعمد ! . فعمدوها سرّاً ..

.....
ونما غصن تاييس وازدهر حسنها ، فهامت بحب اللهو
 والمرح ، وتولدت في نفسها ، وهي تنمو وتكبر ، رغبات مبهمه
وأهواء .. فكانت ترقص وتغنى سحابة نهارها مع أولاد
الشوارع ، وفي الليل تعود إلى البيت وهي لا تزال تغنى .. ثم
أخذت تفضل صحبة الصبيان والبنات على صحبة أحسن الرقيق
الرزين ، فلم تلاحظ أيضاً اشتغال صاحبها وما كان يفوه به
أحياناً من تهديد ووعيد كقوله : « سوف يفقد الأغنياء
أموالهم ! » .. وذهب مرة إلى السباحات العامة حيث اعتاد فقراء

المسيحيين أن يجتمعوا ، وهناك بشر البائسين الراقيدين في ظل
الجدران العالية ، بتحرير الأرقاء ودنو يوم الغدالة ، ومنّاهم بشر
خمر صافية ، والأكل من كل الثمرات في ملكوت السموات ،
على حين يكون الأغنياء جاثين عند أقدامهم كالكلاب يلتقطون
فتات موائدهم ... !

وذاع ذلك عنه ، وخشى السادة أن يغرى أحسن عبيدهم
بالتمرّد ، فاتّهم بسرقة « مملحة » من الفضة نكاية في سيده ، وأنكر
العبد التهمة ، لكن القاضي حكم عليه بالموت ، لأنه « عبد رقيق
لا قيمة له ولا اعتبار » وقال له : « ستُسَمَّر في صليب يداك اللتان
لم تعرف كيف تحسن استخدامهما ... » .

وكانت تاييس قد بلغت من العمر إحدى عشرة سنة عندما
مات صديقها معذباً ، فشعرت بحزن عميق وجزع شديد . ولم
تكن من سعة الإدراك بحيث ترى هناة أحسن بحياته وموته
على السواء .. وتولد في ذهنها الضيق أن الصلاح يكلف الألم
والعذاب ، فخافت أن تكون صالحة لأن جسدها الغض الرقيق
لا يحتمل عذاب التقوى ! ..

وكان لها قبل الأوان عشاق من صبيان الميناء ، وكانت
تتبع الرجال المسنين الذين يطوفون مساءً في ضواحي المدينة

مفسدين ، وتشترى بما ينفجونها به حلوى وزينة .
وأساءت أمها معاملتها لأنها لم تكن تأخذ إلى البيت شيئاً
مما تربحه من النقود ، فكانت كثيراً ما تهرب حافية إلى
أطلال المدينة ، حيث كان يخامرها حسد النساء اللواتي تراهن
مارّات متبرجات في أبهة وبهاء ، محمولات في محفّاتهن على
أكتاف الأرقاء .

وفي ذات يوم نالها من الضرب ما لم تستطع معه صبراً ،
فانطرحت عند بوابة المدينة ، ثائرة ، واجمة .. وبينما هي على هذه
الحال ، وقفت بها امرأة عجوز ، ونظرت إليها ملياً وهي ساكتة ،
ثم قالت : « يالك من زهرة حسناء أيتها الصبية الفتاة ! .
ما أسعد أباك الذي أوجدك وأمك التي ولدتك ! . . »

فلبثت تاييس صامتة مطرقة ، وقد احمرت جفونها من البكاء ،
فعادت العجوز تقول :

— يا زنبقتي البيضاء ! . أليست أمك سعيدة لأنها
أرضعت معبودة صغيرة مثلك ؟ أوليس أبوك مغتبطاً من
صميم فؤاده برؤيتك ؟

فأجابت الصبية ، وكأنها تحدث نفسها :
— أبى زقّ متنفخ من الصهباء ، وأمى علقّة شرهة ! . .

فنظرت العجوز يمنة ويسرة لتستوثق من أنه ليس عليها
رقيب ، ثم قالت متلطفة : « أيتها السوسنة النظرة ذات البهاء !
أيتها الحسنة التي تشرب النور وتنهل الضياء ! . تعالى معي ،
فتكون حياتك سلسلة متصلة الحلقات من الرقص والبسمات ! .
سأطعمك الشهد ، ويحبك ابني حبه لعينييه . . وهو فتي لو علمت
غض الإهاب ، فاتن المحيا ! . . »
فذهبت معها تاييس .

وكانت تلك المرأة ، وتدعى « مروي » ، تأخذ البنات
والصبيان من بلد إلى بلد ، تعلمهم الرقص ، ثم تؤجرهم لسراة
القوم ليرقصوا في الولائم والحفلات .

ولما رأت أن تاييس لا تلبث أن تغدو أجمل النساء ، علمتها
الموسيقى والغناء ، وكانت تجلد ساقها إذا لم تهب عند سماع
نغمات القيثارة ، أما ابنها فكان ثمة إجهاض ، لا تبدو عليه
حقيقة سنه ، ولا يميز الناظر إليه كنه جنسه ! . . وكان يتهر
الفتاة ، ويصب على رأسها جام حقهده على النساء جميعاً . وكان
ينافس الراقصات بتكلف رشاقتهن ، فتعلمت منه تاييس فن
التمثيل الإيمائي ، والتعبير عن العواطف بالحركة والإشارة ،
وامتازت بتمثيل أهواء الغرام ، وقد محضها أستاذها ، على كره

منه ، نصحه ، وكان يغار من تلميذته ، فيخدش خديها ويقرص
ذراعيها أو ينفخها بإبرة في ظهرها عند ما يتجلى له أنها خلقت
لإمتاع الرجال ! . . .

وجاءت « مروي » مدينة أنطاكية ، فأطنبت في مدح
تلميذتها كراقصة عازفة ، لوجوه المدينة وأعيانها الموسرين . .
فرقصت تاييس ، ونالت الإعجاب ، وأخذها السراة بعد
انفضاض الولائم إلى أحراش نهر العاصي ، فسامت نفسها دون
أن تعرف للحب ثمناً . . . ولكن حدث ذات ليلة ، بعد أن
رقصت أمام أظرف شبان المدينة ، أن اقترب منها ابن الوالى
يتوثب فتوة ويختال عزّة ، وقال لها بصوت كأنه مرطب بالقبيل :

— ليتنى التاج المنعقد على مفركك يا تاييس ! ليتنى القميص
المزور على جسمك البديع ! . ليتنى نعل قدمك الجميلة ! . .
إبنى أروم أن تطأى بقدميك هامتى ، وأن يكون قيصك
وتاجك من عناقى وقبلاتى . . فتعالى أيتها البنية المليحة إلى
بيتى لنسبى العالم . .

فنظرت إليه ، وهو يتضرع ، واستبان محاسنه . . فأثلج
العرق جبينها ، واستحال لونها كالعشب اخضراراً . .
وترنحت ، وانتشرت على عينيها غشاوة ، ولكنها امتنعت عليه

بقوة مجهولة لا تقاوم ، حتى ظنّها القوم بلهاء ، لأنها تنبذ
« لوليوس » الفتى النبيل الغنى الجميل . . .

وتغيرت تاييس ، ودهمتها الكتابة ، وعافت رؤية الضياء ،
ولبثت سحابة نهارها مضطجعة في فراشها ورأسها غارق في
الوسائد ، وجاء لوليوس يرجو ويلعن تلك البنت العنيدة ،
فلبثت في حضرته خائفة كعذراء بتول ، وأصرت على رفضها . .
وبعد خمسة عشر يوماً وهبته نفسها : إذ شغفها حباً . .
وعاشت معه عيشة هنيئة . . وجاءت مروى العجوز إلى بيت
لوليوس تطلب تاييس بصيحات عالية :

— ابنتي ! . ابنتي التي أخذت مني عنوة ! . . زهرتي
المعطرة ، حشاشة فؤادي وفلذة كبدي ! . .

فصرفها لوليوس بعد أن أجزل لها العطاء . لكنها لما
عادت تلحف في طلب المزيد من قطع الذهب ، بعث بها الفتى
إلى السجن ، وحقق الأحكام جرائم عديدة اتهمت بارتكابها ،
فسيقت إلى الموت ، وطرحت طعاماً للوحوش الضارية !

.....

وظل سحر الحب ستة أشهر . . ثم انحلت يوماً طلاسمة .
فأحست تاييس فجأة بنفسها خالية وحيدة ، وتساءلت : « كيف

تغيرت هكذا في طرفة عين؟ وكيف تغير لوليوس حتى إنه صار في نظري مثل سواء من الرجال، ولم يعد مثل نفسه؟» .. ثم هجرته .. وخيل إليها أن الحياة مع إنسان لم تحبه قط أيسر خطباً منها مع إنسان لم تعد تحبه .. وصحبت المترفين من أبناء المسرات في تلك الولائم التي ترقص فيها العذارى العاريات، وتقطع فيها السراري نهر العاصي ساجحات .. واشتركت في ملاهى المدينة البديعة الفاسقة، وأكثرت من التردد على دور التمثيل، وعينت بدراسة حركاتهن، وتوقعت أن تبذأ رقي الممثلات، لأنها كانت تفوقهن حساً وحسناً ..

ولما برزت على مسرح التمثيل تفجر بأس جماها وقتها بقوة اهتزت لها المدينة من أقصاها إلى أقصاها، وشوهد زعماء الأمبراطورية وقضاتها في المقاصير .. وحرّم الحمالون وعمال الميناء أنفسهم الخبز والثوم ليدفعوا أجر مقاعدهم .. ومدحها الشعراء .. وخطب في تجميعها الفلاسفة .. وأشاح عنها الرهبان وهى تمر بهم في محفتها !

تَوَجَّعت عتبة بيتها بالزهر، ونضجت بالدم .. تلقت من عشاقها الذهب بغير حساب، وزناً وكيلاً لا عدداً .. وتدفقت الكنوز التي ادخرها الكهول الأشحاء عند موطن قدميها

كالأنهار .. لذلك طابت نفساً وقرت عيناً .. وهامت بحب
نفسها، لأن الجميع هاموا بها ! ..

وبعد أن تمتعت سنوات بحب الأنطاكيين وإعجابهم،
اشتاقت إلى الإسكندرية، لتعود فتظهر مكاتها للمدينة التي
ضربت في أرجائها وهي طفلة، تجر ذيل الشقاء والحرمان، وقد
أضناها الجوع والمسغبة، كالجرادة الهائلة في الصحراء ..

فاستقبلتها المدينة الذهبية بالفرح والترحيب، وغمرتها
بالهبات والعطايا، وكان ظهورها على المسرح نصراً مبيناً،
وسعى إليها جمهور لا يحصى من المعجبين والعاشقين .. ولكنها
تلقتهم بفتور وقلة مبالاة، لأنها يئست من العثور على من
يشغل مكاناً شغله لوليوس من قلبها ..

(٢)

فى طيبة المقدسة

نحن فى « طيبة » المقدسة ... وكانت الصحراء فى ذلك الزمان يسكنها النساك فى أكواخ بنوها من الأغصان والطين كبيوت الفلاحين ، تمتد على شاطئ النيل متجاورة ، متناثرة ، تجمع لأهلها بين العزلة والمؤازرة . وهنا وهناك كنائس يقصدها الرهبان فى الأعياد لإقامة الشعائر . . وقد أخذوا بأسباب التقشف والزهد ، يصومون حتى المغرب ، ثم يتبلغون بكسر من الخبز والملح ، وارتنوا ببر الإبل ، وتهجدوا ، ثم اتخذوا من الأرض فراشاً . .

وحرموا بداهة على أنفسهم الخطيئة الأصلية ، التى سببت عندهم عصيان آدم وحواء أمر ربهما بأكلهما الثمرة المحرمة ، فطردا من الجنة ، وتعرضا هما وسلاتهما لعذاب الدنيا والآخرة . . وكانوا يعتقدون أن أمراض البدن تطهر

الروح ، وأن أشرف حلية هي ما يظهر على وجوههم من
البشور والقروح !

وكان بعض هؤلاء النساك يحصلون معاشهم بضفر ألياف
النخيل وخدمة الزراع المجاورين أثناء الحصاد بأجر معلوم ..
وكان الملائكة يزورون الصوامع في شكل سياح ، في حين
يتخذ الشياطين أشكال الأحياء أو الحيوان ، ويجولون بين
النساك ليضلّوهم عن سواء السبيل .. وكان الرهبان عندما يذهبون
في الصباح ليملاؤا من النبع أباريقهم يرون آثار أقدام الشياطين
مطبوعة على الرمال .. وكانت « طيبة » للمأمل ميدان قتال
روحي بين النعيم والجحيم !

وكانت جيوش الشياطين تهاجم الزاهدين أحياناً هجوماً
عنيفاً ، فيدافع هؤلاء عن أنفسهم بأسلحة الصوم والصلاة
والتقوى والتقشف مستعينين بالله وملائكته .. وكانت تقسو
عليهم أحياناً ميولهم الجنسية فتخزهم وخزاً يعزق أحشاءهم ،
فتتجاوب تحت قبة السماء ذات السكواكب صيحاتهم المزعجة
كعواء الضباع الجائعة ! .. عند ذلك تتحول الشياطين إلى صور
فتانة فاجرة ، تحول دون معرفة حقيقة أمرهم .. فيجزع رهبان طيبة
إذ يرون في صوامعهم مشاهد التمتع غير المعروفة حتى عند

معاصريهم المترفين المتهتكين . . فيستنجدون بالصلبان التي
تعلو صوامعهم ، فترتد الشياطين النجسة إلى أشكالها الحقيقية ،
وتبتعد آخر الليل في خجل وغيظ . . .
أما شيوخ الصحراء فقد امتد سلطانهم إلى الثواب
والعقاب . . وتناقل الناس حتى مدينة الإسكندرية أن
الأرض تنشق لتبتلع الأشرار والفجار الذين تمسهم عصي
هؤلاء الشيوخ الصالحين .

ومذ صعد « القديس أنطوان » إلى قمة جبل كلزان ، بعد
ما أربت سنه على المائة مصطحباً أحب مريديه إليه : « مقار »
و « أماتاس » ، لم يبق في طيبة كلها راهب أبر وأصلح من
بافنوس ، كاهن بلدة « أنصينا » ، التي قامت على أطلالها بلدة
« الشيخ عبادة » المعروفة بالصعيد . . فكان أشد الرهبان قسوة
على نفسه ، يقضى ثلاثة أيام بلياليها صائماً لا يدوق طعاماً ، في
عبادة من الصوف الخشن ، يجلد نفسه صباح مساء ، وطالما
انبطح على الأرض ممرغاً جبهته في التراب ! . .

أما تلاميذه الأربعة والعشرون ، فبعد أن بنوا أكواعهم
على مقربة من كوخه ، اقتدوا به في تقشفه وورعه . . وكان
منهم قاطع الطريق الذي اهتدى ، والواعظ فلاقيان الكاتب

والخطيب ، ومنهم طاهى ملكة الحبشة الذى صار بعد أن
هداه معلمه يذرف الدموع بلا انقطاع . . . بيد أن أعجب
تلاميذ بافنوس كان غلاماً صغيراً يدعى «بولس» ، ولقب بالساذج
لسلامة نيته التى لا حد لها ، بحيث تضحك الناس منه ، غير
أن الله شرفه بأن خصه بالرؤى الصادقة .

وكان بافنوس على حداثة سنه موفور الحظ من الفضيلة ، فلم
تكن الشياطين التى تهاجم رهبان طيبة تلك المهاجمة العنيفة
لتجروا على الدنو منه . . . واعتاد سبعة من جراء بنات آوى ، أن
تقعى أمام صومعته فى الليل ، فى ضوء القمر ، منصتة فى
هدوء وسكون . . . وقيل بل تلك سبعة من الجن كان قد
استبقاها ببابه لا تتعدى عتبة بقوة قداسته ! . . .

ولد بافنوس فى مدينة الإسكندرية من أبوين نبيلين ، وتأدب
بأدب الدنيا ، ولشد ما أضلته أكاذيب الشعراء ! . . . فقد
غمروه بعواطفهم ، فاسترسل فى الخلاعة ، حتى إنه لا يكاد يذكر
ذلك العهد من صباه الباكر إلا بالحياء والنفور ! ودرج على سنن
الحياة فى عصره حتى بلغ العشرين ، ثم تهذب على يدى
الكاهن «ماكرين» ، فخلق خلقاً آخر ، وعاد رجلاً جديداً . . .

وفي ذات يوم سمع واعظاً في كنيسة يقرأ من الكتاب المقدس آية مؤداها : « إذا شئت أن تكون كاملاً فاذهب وبع ما تملك وأعط الفقراء ثمنه » . . فباع من فوره متاعه وأفق ثمنه في وجوه البر والإحسان ، وانخرط في سلك الرهبنة . .

وحدث يوماً ، وهو في صومعته الصحراوية ، أن فكر في ماضى حياته ، عند ما كان بعيداً عن الله ، واستعرض خطاياہ واحدة بعد واحدة ليدرك شناعتها . . فتذكر أنه رأى منذ بضع سنين في ملعب الإسكندرية ممثلة ساحرة الجمال تدعى « تاييس » ، لم تكن تخرج من رقص يثير في النفس أقوى النزعات ويعرض الرأى لأشنع الرغبات . . وكان يختلف إليها الشبان المغرمون والشيوخ الأغنياء المدهون ، يعلقون أكاليل الزهر بياها ، فترحب بهم . . وأضاعوا بضائع نفسها نفوسهم ! . .

وكان بافئوس نفسه من المعجبين بها ، فقد أضرمت فيه نار الصباية ، فاقترب ذات مرة من بيتها ، لكنه وقف بالباب ، وصده الجبن ، وعقل قدميه التهبب الفطرى في الشباب (كان في الخامسة عشرة من عمره !) ، وكان تحرجه كذلك خشية أن يزجر لخلو ذات يده ، إذ كان أبواه يضنان عليه . . ولكن لقد

كان من رحمة الله به أن قيض له ذلك استنقاذاً له من وزر كبير . . وإن كان بافنوس لم يحمدته تعالى يومئذ لأنه كان لا يفرق بين النافع والضار ، وكانت نزواته طائشة . .

. والآن وقد ركع بافنوس في صومعته يصلي ، فقد تراءت له صورة تاييس بجلاء تام ، فرآها ثانية جميلة الجسد — كما كانت حين نصبت له حباثل الغواية — راقدة فوق مضطجع من حجر يمان ، ناكسة الرأس ، مغرورة العينين المملوءتين نوراً ، باسمه ، ترتجف شفاتها ، وتديها كزهرتين ، وزنداها كجدولين . . فضرب بافنوس صدره قائلاً : « أدعوك ربى لتشهد على شعورى بشناعة خطيئتي ! » . . ثم تغيرت ملامح الصورة شيئاً فشيئاً ، إذ زاد ابتسام ثغرها ، فاقتَرَ عن ألم خفي ، وامتلات عيناها النجلوان دموعاً ونوراً ، وجعل صدرها يعلو ويهبط بالتهنيدات ، وهي ترفرف زفيراً يشبه أول هبوب العاصفة . . فاضطرب بافنوس وخرّ ساجداً ضارعاً إلى الله :

— رباه انزع من قلب عبدك هذا الحنان الباطل الذى يؤدى إلى الاشتهااء ! . . رباه ضع حداً لخطايا هذه المرأة . . فإنى ليحزننى ويبكىنى أن أتصور الزبانية يعذبونها فى نار جهنم كلما خبت زادوها سعيراً .

وإنه كذلك إذ رأى ابن آوى صغيراً مقعياً عند قدميه ،
فأدهشه ذلك كثيراً ، لأن باب صومعته كان موصداً منذ
الصباح .. ولاح على الشعب أنه قرأ ما جال بخاطر الكاهن ،
فحرك ذنبه كالكلب ، فرسم بافنوس علامة الصليب ، فاختفى
الحيوان .. وهنالك علم بافنوس أن الشيطان قد استباح صومعته
ودخلها لأول مرة ..

فبات مسهداً أرقاً لم يذق طعم النوم سواد ليله ، ورأى عند
الفجر رؤيا .. ظهرت له تاييس فيها مرة أخرى .. لم تبد على وجهها
آية علامة للأهواء الضالة أو الملاذ الأثيمة ، ولا كانت مرتدية
كعادتها شفوفاً المهلهلة ، بل كانت في بُردة تغطيها كلها
وتحجب بعض وجهها ، بحيث لم يستطع الراهب أن يرى سوى
عينين تفيضان بالدموع السخينة .. فبكى لهذا المشهد .. وجرى
في ظنه أن هذا الحلم وحى من عند الله .. فطلق التردد ، ونهض
لساعته وتناول عصاً معقدة ، وغادر صومعته ، ودعا الشمس
فلاقيان ليستودعه تلاميذه الثلاثة والعشرين .. وسار والنيل
محاذياً الشاطئ الليبي قاصداً المدينة التي أسسها الإسكندر
المقدوني .. وبدأ السير عندما نبشاق الفجر فوق الرمال مستهيناً بالتعب

والجوع والعطش .. وكانت الشمس تحت الأفق حين رأى النهر
الرهيب زاخر الموج مخضوباً بالدماء بين صخور الذهب والنيران ..
واستعطى الخبز لوجه الله عند أبواب الأكواخ المنفردة ، متلقياً
الانتهاز والزجر بابتهاج ، غير خائف من اللصوص أو الوحوش
الضارية ، متنكباً القرى والأمصار التي في طريقه خشية أن
يرى الصبايا في جلايبهن الزرقاء يملأن جرارهن مبتسمات ..
يترنحن من نشوة الحسن ، والاستعداد للحب .. فما أخطر هذا
على قلب الناسك المتبتل الذي نذر نفسه لله ! .. وانطلق
يضرب في الطرق الموحشة .. وكما أمسى فداعب النسيم الشجر
والنخيل ، ارتجف فأسدل غطاء رأسه على عينيه حتى لا يشاهد
جمال الكائنات ! .. ووصل بعد عدة أيام إلى الإسكندرية
التي لقبها الإغريق بالجميلة والذهبية .. وكان الفجر قد تبليج منذ
ساعة ، فلاحته له المدينة الرحبة العظيمة ، من ربوة ، تتلأأ
قبابها في ضباب الصباح الوردي .. فوقف وضم ذراعيه إلى
صدره ، ولعن المدينة التي نشأ في أحضانها ، وشب في ربوعها ،
وأنكرها ، وأعلنها بأن قلبه قد تحول عنها .. لأنها مدينة فاجرة
داعرة ! .. وهو يمتقها لغناها ، وعامها ، وجمالها ، ومسراتها ! ..
ومضى حتى دخل المدينة ، من « باب الشمس » الحجري

الشامخ الذى على تساميه وخيلائه يتربع فى ظله الفقراء البائسون
يستجدون المارة وهم يتأوهون ، أو يبيعونهم التين والليمون ...
وقبّلت عجوز فقيرة مسوح الراهب ، ورجمته شرذمة من الأطفال
بالحجارة وهم يصيحون : « يا للراهب الخبيث : إنه أسود من
القرد الأسحم ! وأقبح من التيس الملتحى ! .. لماذا لم ينصبوه
لعيناً لتخويف العصافير وزجر الطير ! .. لكن لا ! .. إنه يجلب
البرد على زهر اللوز ! .. إنه يجلب النحس والشؤم ! .. اصلبوا
الراهب ! .. اصلبوه ! .. » .. وانهاالت عليه الحجارة مع صيحاتهم ..
فباركهم بافئوس وغفر لهم ! .. واجتاز المدينة سريع الخطى ،
وتذكر بعد غيبة عشر سنوات كل حجر فيها ، وكان كل حجر
يذكره بمعصية ، فطفق يضرب حجارة الطريق بقدميه
حتى تمزقتا وانبثقت منهما الدماء .. ثم سار عن يمين أروقة
معبد السرايس الفخمة ، فى طريق مخفوف بالقصور المنيفة .
التي كانت كأنها تنطف عطراً .. وهناك الأشجار الشاخنة
برؤوسها فوق الطنوف الحمراء وقواعد التماثيل المذهبة .. ورأى
من خلال الأبواب تماثيل من النحاس فى أروقة من المرمر ،
وخيوطاً من الماء النافر ترقص بين أغصان الشجر .. ولم
يك ثمة صوت يكدر عنده سكون هذه الوحدة الرائقة سوى

أنعام ناي بعيدة .. فوقف الراهب أمام بيت صغير بديع
التقسيم ، قائم على أعمدة كأنها لحسن صنعها فتيات ، ومزدان
بتماثيل نصفية من البرنز لأشهر فلاسفة اليونان ، عرف
بافنوس منهم أفلاطون وسقراط وأرسطو وأبيقور وزينون ...
والتمس رؤية صاحب البيت « نسياس » ، فألفاه خارجاً من
الحمام ، والجواري الجميلات يدلكن جسمه ، وكان رجلاً رقيقاً
بشوشاً ، يجمع محناه بين حلاوة الدعابة ومرارة التهميم .. فلما
أبصر الراهب تقدم إليه مفتوح الذراعين :

— هذا أنت يا بافنوس ! .. رفيق في طلب العلم ،
صديقي ، أخى ؟ ! لقد عرفتك رغم قدومك في صورة أشبه
بالوحوش منها بالبشر ! أهلاً بك أيها العزيز بافنوس ، ومرحباً ،
بعد فراق عشر سنين ! .. لقد غادرت الصحراء وزهدت في
خرافات النسك ، والآن تعود إلى الحياة سيرتك الأولى .. حقاً
إن اليوم ليوم ميمون ! ..

وأشار إلى جاريته لتضمخا بالطيب يدي ضيفه العزيز
وقدميه ولحيته .. فابتسمتا ، وأقبلتا عليه بإبريق وقناني ومراة
معدنية .. لكن بافنوس وقفهما بإشارة الأمر ، ثم غض من
بصره لأنهما كانتا عاريتين ! .. وقال : « أعزني حلة مغطاة ،

كتلك التى تلبسها ، ومُنَّ على بنعال مذهبة ، وقارورة زيت
أطيب به لحيتى وشعرى ، وزد على هذا سفظاً فيه ألف درهم ..
هذا ما أتيتك فى طلبه يا نسياس حبا فى الله وإكراماً لعهد
صداقتنا القديم « .. فأمر له بما طلب .. لكن بافنوس
استحسن أن يطلع مضيفه على سر طلبه ، فقال :

— أتعرف تاييس الممثلة ؟ ..

— يا لها من امرأة جميلة فتانة ! .. أغزها وأعجدها
وأقول الشعر فيها .. فهل أتيت يا بافنوس الصالح من أعماق
طيبة فى طلب تاييس ؟ ..

— اعلم يا نسياس أنى أريد إتقاذها بمعونة الله من حضيض
الملذات الأرضية السافلة .. لتكون عروساً للمسيح .. وإذا
لم يفارقنى الروح القدس فستغادر تاييس هذه المدينة اليوم
لتدخل الدير .

— حذار أن تغضب « الزهرة » فهى إلهة قادرة .. إن
أنت حرمتها أجمل عبادها ، أوغرت صدرها عليك ! ..
حذار ، فانتقامها مروع ! ..

وبعد ساعة من الزمن طرق بافنوس باب تاييس .. وكانت
الممثلة تسكن بيتاً محاطاً بجنات وارقة الظلال ، فيها صخور

صناعية ، ينساب في وسطها غدير مزدان بأشجار الحور ،
في حي راكوتيس ، بقرب قبر الإسكندر . . .

ففتحت له الباب جارية سوداء شمطاء مثقلة بالخلي ، وسألته
عما يريد .. فأجابها : « أروم رؤية تاييس ، علم الله أنني ما أتيت
إلى هنا إلا لرؤيتها » . . . ورأت الجارية أنه يلبس ثوباً فاخراً
ويتكلم بأبهة السيادة ، فسمحت له بالدخول ، وقالت :
— تجدد تاييس في كهف العذارى

(٣)

في كهف العذارى

عنيت تاييس بجذائق دارها ، فغرست فيها الأشجار الغالية
التي جلبتها بنفقات باهظة من الهند وبلاد الفرس ، يرونها
جدول متفجر ، وسط صف من الأعمدة المتهدمة والصخور
الهائلة المشيدة بيد بناء ماهر ، تنعكس في بحيرة ترتسم على
مرآتها المجلوة التماثيل التي حولها .. وفي وسط الحديقة يقوم
« كهف العذارى » الذي يعزى اسمه إلى تماثيل ثلاث من
النساء مصنوعة من الرخام الملون بمهارة وتقنن ، واقفات عند
مدخله .. وهو لاء النسوة كن قد نضون ثيابهن ليغتسلن ،
والتفتن قلقات خشية أن يراهن أحد ، وعليهن علامات الحياة .
وكان الضوء لا ينفذ إلى هذا الخدر إلا من خلال طبقات المياه
الرائقة التي تخففه وتلونه بألوان قزحية .. وعلى جانب الحيطان
علقت ، كما تعلق في المغاور المقدسة ، التيجان وأكاليل الزهر

والصور المنذورة التي ظهر فيها جمال تاييس وذاع صيته ..
وفي وسط الكهف نُصِب فوق عميد قصير تشال صغير لاله
الحب « إيروس » ، مصنوع من العاج صنعا قديما دقيقا عجيبا ،
وكان هدية من نسياس .. وثمَّ عنزة من المرمر الأسود واقعة
في حفرة ، يظهر منها بريق عينيها الحقيقيتين ، وقد التف حول
ضرعها ستة جداء من المرمر الأبيض .. وقد همّت العنزة
بأظلافها ورفعت رأسها الفلطح ، كأنما كلّت وفرغ صبرها من
رضاع صغارها .. وكأنها تود أن لو يتاح لها الجرى وتساق
الصخور .. وكانت الأرض مفروشة ببساط بيزنطى ، ووسائل
مطرزة بأيدي الصُفر من أهل قضاى ، وجلود أسود من صحراء
ليبيا ، وكان البخور يتصاعد من المباخر الذهبية .. وهنا وهناك
أصص فيها نبات مزهر ، ووراء هذا كله ، فى الظل الأرجوانى ،
تلمع أظافر من ذهب لساحفة هندية هائلة مقلوبة على ظهرها ،
تستخدم كسرير للممثلة .. فكانت تاييس ، فى هذا المكان ، فى
كل يوم ، بين خري الماء وشذا الزهور ، وعبير العطور ، تضطجع
برخاوة واستسلام ، فى انتظار ساعة العشاء ، تتحدث إلى
أصحابها ، أو تفكر وحدها فى شؤون المسرح ، أو فى كَرّ الغداة
ومرّ العشى ..

في ذلك اليوم بالذات كانت ، بعد التمثيل ، جالسة في « كهف العذارى » تنظر في مرآتها العلامات الأولى لتضاؤل جمالها وذبول حسنها .. فها لها التفكير في أنه سيحين أخيراً حين الشعر الأبيض والعضون والتجعدات .. وإذا صوت لا أثر للرحمة فيه يُهيب بها : « ستبلغين يا تاييس من الكبر عتياً ! ستشيخين يا تاييس ويدركك الهرم ! » .. فجمد العرق البارد على جبينها ، وطالعت وجهها ثانية في المرآة برقة بالغة ، فألفت نفسها لا تزال جميلة فتانة ، جديرة بأن تُعشق وتُشتهى ، فابتسمت لصورتها وتمتمت : « ليس في الإسكندرية كلها امرأة واحدة يضارع قوامها قوامي اللدن ، ولا من تماثلني في رشاقة الحركات وبهاء الأذرع .. والأذرع ، أيا مرآتي ، هي سلاسل الحب ! » ..

وعندئذ رأت رجلاً مجهولاً ، نحيلاً ، مشتعل العينين ، منتفش اللحية ، مرتدياً ثوباً مزركشاً ثميناً ، واقفاً أمامها .. فأفلتت مرآتها من يدها وصرخت مدعورة ..

ووقف بافئوس جامداً ، ولما رأى مبالغ جمالها ، قدم من أعماق قلبه هذه الضراعة :

— ربي .. إن هذا سلطان شديد ، لواحدة من خلقك ،

على عبادك! .. ربي، لا تجعل وجه هذه المرأة سبباً في غوايتي،
بل سبباً لهدايتي! ..

ثم أرغم نفسه على الكلام، وقال:

— تاييس! .. إنني من سكان أرض سحيقة نائية، وقد
قادني إليك صيتُ جمالك .. قيل إنك أبرع الممثلات وأقدر
الراقصات .. وكان قصص ثرائك وغرامك وأهوائك من
أساطير الأولين، تعيد إلى الذهن ذكرى «روديس» القديمة التي
يحفظ ملاحو النيل تاريخها العجيب عن ظهر قلب .. ولعمري
إنني لأرى الخُبر يفوق الخُبر! إنك أعلم وأجمل ألف مرة مما ذاع
عن علمك وجمالك .. والآن إذ أراك أقول لنفسى: «يستحيل
على المرء الاقتراب منها إلا ويترنح وترنح السكارى» ..

فنظرت تاييس بغير استياء إلى هذا المخلوق الغريب الذي
أخافها وأدهشها بمنظره القبيح الوحشي، ونظراته السكينة
النارية، وودت معرفة شأن هذا الرجل الذي يختلف كل
الاختلاف عمن عرفتهم أجمعين .. وأجابت بسخرية رقيقة:
— يلوح لي أيها الأجنبي أنك سريع الإعجاب بالناس ..

فحذار أن تشغفك نظراتي، فتبلى جسدك، وتوهن العظم
منك! .. حذار من خبي! ..

— إني أحبك يا تاييس! .. أحبك أكثر من حياتي ،
وأحبك أكثر من نفسي .. لأجلك غادرت صحرائي ، ونطق
لساني بكلمات دنيوية ، وكان قد نذر الصمت .. أجل ! إني
أحبك ، لا كهؤلاء الرجال الذين تضرع الشهوات أبدانهم ،
فيتساقون إليك كالذئاب الخاطفة أو الثيران الهائجة .. فيلتهم
حبهم روحك ، ويضني جسدك ، أيتها المرأة .. أما أنا فأحبك
بالروح ، والحق ، في الله ، وإلى الأبد .. والنعم الذي آتيك به
مقيم لا يزول ، نادر لم يُسمع به ، رائع لا يوصف .. وإذا قدر
للسعداء في هذه الدنيا أن يروا لحظة واحدة من مثله ، فإنهم
يموتون للحال من شدة الدهول ...

فضحكت تاييس تهكم وارتياب ، وقالت بخبت :
— على يا صاحبي بهذا الحب العجيب ! .. عجل ! .. فإني
أعد إسهابك في القول مهانة لحاسني .. إنك تقول بحب
مجهول .. ليت شعري ، لقد مضى دهر طويل على تبادل القبل
بين الرجال والنساء ، بحيث يكون من عجائب الزمن بقاء
أسرار حب مجهولة لم يعط عنها اللثام ! .. والعاشقون يعرفون
أكثر من السحرة في هذا الباب ! ..

غير أنها مع ذلك اعتزمت أن تهب نفسها له ، ولهذا

تظاهرت بالخوف منه ، وخطت إلى الوراء مرتدة إلى آخر
كهف العذارى ، وجلست فوق حافة الفراش وقدمها
الحافيتان تهتزان في رفق ولين ، ورفعت قميصها بلباقة ، ثم
لبثت ساكنة ، ساكنة ، لا تبدى حراكاً . . . تنتظر . .
يجفون منكسرة . . وقد ألقى أهدابها الطويلة على الخدين
ظلاً خفيفاً . . وكان مظهرها ينم عن حياء وخفر ، فشابهت بنتاً
تحلم وهي متكئة عند حافة غدير . . فنظر إليها بافئوس ولم
يتحرك ، ولم تعد ركبته المرتجفتان تقويان على حمله ، وجف
لسانه في فمه ، واعتري دماغه دوى هائل ، وأغشى على بصره ،
فعاد لا يرى أمامه سوى سحابة كثيفة ، فظن أن يد يسوع
قد ألقيت على عينيه لتحجب منظر المرأة عنه ، فاطمأن لهذا
العون وتشددت عزيمته ، وقال بوقار يليق بشيخ الصحراء :

— أفتظنين ، إذا وهبت نفسك لي ، أننا نحفي على الله ؟ !

فهزت رأسها قائلة :

— الله ؟ ! ومن ذا الذي يكرهه دائماً على مراقبة كهف

العذارى ؟ ! فليصرف عنا إذا كنا نسوءه . . ولكن كيف

نسوءه وقد خلقنا نفعل وتتأثر بحسب الطبيعة التي أوجدها فينا

وكما صورنا وبرأنا ؟ ! ثم من تكون أنت حتى تخاطبني باسمه ؟ !

وعند هذا السؤال كشف الراهب قليلاً حليته المستعارة ،
فظهر ثوبه الوبرى ، وقال :

— أنا بافنوس ، كاهن « أنصينا » الأكبر ، جئت من
الصحراء المقدسة فى طلبك ، إذ ظهر لى رسمك فى مقدسى الرملى ،
فعرفت أن نفسك مفعمة بالفساد ، وأن كانت فىك المنون ،
وهأنذا أمامك أيتها المرأة وكأنى أمام جدث ، وإننى أصبح بك :
« انهضى يا تاييس » ! .

فاما سمعت تاييس اسم بافنوس امتقع لونها وزحفت
متشابكة اليدين ، إلى قدمى القديس وهى تنوح :

— لا تؤذنى ! ما الذى جاء بك ؟ ماذا تبغى منى ؟ ..
أنا أعرف أن أولياء الصحراء يمتقنون النساء اللواتى خلقن على
شاكلتى متعة للرجال .. هل تريد إيذائى ؟ ! إننى مسيرة
لا مخيرة فيما أنا عليه .. وقد خلقت لما أنا فيه ، وولدت لأقتن
الرجال .. وأنت نفسك قلت الآن إنك أحببتى ، فلا تستخدم
عاملك فى البطش بى ، ولا تفه بكلمات السحر التى تتلف جمالى ،
أو تبدلنى تمثالاً من الملح ! .. فلشد ما أخاف الموت ! ..

— هدئى روعك يا بنية .. وإذا كانت عيناك اللتان
لم تتعودا النظر إلا إلى تقائص البدن وعوراتها ، تستطيعان أن

تنظر إلى الأشياء بحقيقتها الروحانية، فلا تظهرنَّ إذن لك كغصن
منتزع من تلك العليقة المشتعلة التي أراها الله لنبيه موسى الحكيم
في البرية ، ليعلمه الحب الصادق ، الحب الذي يشعلنا دون أن
يبلينا ، فلا يترك جمرأ ورماداً ، إنما بلسماً وعطراً يضمخان كل
ما يتخللانه إلى آخر الدهور . . .

— إني أصدقك أيها الراهب . . ولم يكن اسمك عني
خافياً ، فقد خبروني أنك على حداثة سنك تضارع في الفضل
أكبر الزاهدين . . فهل تستطيع ، إذا كنت تحبني ، أيها
الراهب ، أن تحول بيني وبين الموت ؟ ! وأن تحقق لي ما عجز
عنه كهنة إزيس وهرمس ويونو والسحرة الكلدانيون
والعرافون البابليون جميعاً ؟ !

— أيتها المرأة ، إن من يرغب في الحياة يحى ، فأعرضي
عن الملذات الدنيئة التي تهلكين بها أبداً ! انتزعي جسدك
الذي فطره الله ونفخ فيه من روحه . . وأتقذيه من أيدي
الشياطين الذين يوشكون أن يحرقوه إحراقاً . . . أيتها النفس
القلقة ، المتلهفة تغالى تنالى ما تشتهين !

— أصبح أيها الراهب أننى إذا نبذت المسرات وتبتُّ ،
أولد ثانية في السماء سليمة الجسم موفورة الجمال ؟

— تاييس ، إننى أحمل إليك الحياة الخالدة ، فتق بى ،
لأن ما أبشرك به هو الحق . . .

— ومن يضمن لى أنه الحق ؟

— داود ، والأنبياء ، والكتب المقدسة ، والمعجزات

التي سوف تشهدن . . .

— أرانى أميل إلى تصديقك أيها الراهب ، لأنى أسلم بأن
نصيبى فى الدنيا كان أعظم من نصيب ملكة ، ومع ذلك
لم أجد فى هذه الدنيا هناءً . . . وكل النساء يحسدننى مع أننى
طالما حسدت العجوز الدرداء التي كانت - وأنا صغيرة - تبغى
أقراص الشهد أمام باب القمر . . . وقد خطر لى غير مرة أن
الفقراء هم وحدهم الصالحون السعداء المباركون ، وأن فى هذه
الحياة الوضيعة الوديعه تعزية وسلوى . . . فىا أيها الراهب لقد
هجت أمواج حياتى ، وطفوت إلى السطح بتلك التي كانت
فى القاع . . . واهاً لأيام طفولتى الماضية ! . . واهاً لأبى الروحى
أحمس القديس الطيب الذكر . . . لماذا لم أمت فى دثاره الأبيض
عند ما كان يحملنى فى مطلع الفجر نديةً بماء المعمودية ؟ !

فوثب بافنوس نحوها صائحاً :

— أنت عمّدت ؟ ! يا للحكمة الربانية ! . . . وبيا للعناية

الإلهية! .. الآن عرفت القوة التي اجتذبتني نحوك، وجعلتك
هكذا عزيزة عليّ، جميلة في عينيّ!

ولثم الراهب جبين الغانية ... ثم سكت، وترك حبل
القول لله .. ولم يكن يُسمع في كهف العذارى سوى زفرات
تايس ممزوجة بخير المياه الجارية .. في حين دخلت جاريتان
سوداوان محمّلتان بالثياب والعطور وتيجان الزهور .. فقالت
تايس، وهي تحاول أن تبسم:

— إني مدعوة إلى العشاء الليلة مع بعض الأصدقاء،
فتنح قليلاً يا أبي حتى ألبس ..

— إني لن أتركك تذهبين وحدك! .. سأصحبك إلى
هذه المأدبة، وأبقى بجانبك، ملازماً الصمت والسكون.

فضحكت تايس، وصاحت، والجاريتان تلبسانها حلّياً:
— ترى .. ماذا عساهم قائلون عندما يرون لي عاشقاً

من رهبان طيبة؟!

(٤)

وداع الحب

طلع الصبح بلون الورد على المدينة ، فأشرفت عليها ، من بعيد ، قبة قبر الإسكندر المتلاثلة . . وكان على جانبي الطريق المقفر أكاليل زهر سقطت أوراقها ، ومشاعل انطفأ نورها ، مبعثرة هنا وهناك . . وكان الهواء مرطباً بنسيمات البحر العليل . . فزق بافئوس ثوبه الفاخر مشمئزاً ، ونهر تاييس ، مشيراً إلى ما رأوه في تلك المأدبة الفاجرة من السكارى المصروعين ، على مقربة من المتعاقين ، فكان الشراب المسكوب يجرى ممتزجاً بالدم المسفوك . . فها هي ذى قد رأت الخطيئة ، وعرفت أنها مرذولة ، وساءت سبيلاً . .

أما تاييس التي أحفظت قلبها مكاره تلك الليلة الحافلة ، وشعرت بتفاهة الرجال وبهيميتهم ، وخبت النساء وغيرتهن ، وثقل وطأة الأيام . . فقد قالت متنهدة :

— نفسى متعبة حتى الموت يا أبتاه ، فأين الراحة ؟ أحس
بجبنى ملتهباً ، ورأسى خاوياً ، وذراعى مرتختين ، حتى إننى
لا أملك من القوة ما يكفينى لإمساك السعادة لو أنها وُضعت فى
راحتى .. ماذا ينبغى أن أعمل ؟

وكانا قد اقتربا من بيت تاييس .. وشهدا فوق الجدران
رؤوس أشجار الجميز والجلنار المحيطة بكهف العذارى ، تهتز
تحت طلّ نسائم الصباح .. فأجاب الراهب :

— إن على مسيرة اثنتى عشرة ساعة من الإسكندرية ديراً
للراهبات ، تعاليمه آيات بينات جديدة بأن تكتب شعراً غنائياً
وتوقع على ألحان الدف والمزمار .. سأخذك اليوم إليه
يا تاييس .. وسنولى الأدبار من هنا لا نلوى على شىء ..
على شريطة ألا ندع وراءنا أدوات جرائمك الماضية وشهودها
وشركاءها .. تلك السجوف والأسرة والبسط وقوارير الطيب
والمصاييح الملونة التى تعلن عن فجورك ؟ .. أتريدين من هذا
المتاع المسكون بالشياطين أن يتبعك إلى البادية ؟ !

فارتضت تاييس هذه النصيحة .. ودعت خدمها وجواريرها
وأمرتهم بأن يطيعوا ما يأمر به بافئوس .. فطلب إليهم أن
يأتوا بنخشب وسط الرحبة ، وأن يوقدوا ناراً ، وأن يلقوا

فيها ما دار عليه البيت الأنيق وكهف العذارى . .
فدهشوا ، ولم يتحركوا ، حتى نهزتهم تاييس وأكدت أن
الأمر جد ، وما هو بالهزل .

فركم الهنود منهم ينفخون في الجذوة المتقدة ، وقذف
الزئوج إلى النار بصناديق العاج والآبنوس والأرز . فسقطت
فيها التيجان المرصعة ، وأكاليل الزهر ، وقلائد اللؤلؤ . . واندلعت
أسنة النيران ، واشتد لهيبها ، وتكاثف دخانها ، وهى تلتهم
وقودها الثمين . . فازداد العبيد حماسة وحمية ، ونشطوا لجر
البسط الغالية ، والبراقع المطرزة بالفضة ، والديباج الموشى ،
والأرائك ، والأسرة ذات العمدة الذهبية .

وحينئذٍ ظهرت تاييس ، حافية القدمين ، مرسلّة الشعر
على الكتفين ، ترتدى قميصاً خشناً لا هندام له ، ولعله صار
بلمسه بدنّها مشرباً بنعمة الله . . وأقبل وراءها بستانى يحمل
تمثال إله الحب « إيروس » مصنوعاً من العاج . . فأشارت
تاييس إلى الرجل بالوقوف ، واقتربت من بافنوس ، وأرته
التمثال الصغير ، وسألته :

— أحمم يا أبى إلقاء هذا أيضاً فى النار؟ . . إنه من الآثار
القديمة العجيبة ، وهو يساوى مائة مرة وزنه ذهباً ، ولن يعوض

إن فقد .. لأنه لا يوجد في العالم فنان قادر على صنع مثله . ولا تنس
يا أبت أن هذا الطفل الصغير هو رمز « الحب » .. ولا يجوز
أن يعامل الحب بقسوة .. صدقني يا أبي أن الحب فضيلة ،
وإذا كنت أنا قد أذنبتُ ، فليس منه ، وإنما إليه .. لن أندم
أبدًا على ما جعلني الحب أعمله ، وإني لأسفة جد الأسف على
ما اقترفته رغماً منه .. أما تراه يا أبي على النساء أن يهين أنفسهن
للذين لا يتقدمون باسمه ، ولا يتشفعون برسمه ؟!

لقد أهداه إلى « نسياس » يوماً وهو يجني . قائلاً : « سوف
يحدثك عنى ! » .. لكن إله الحب الماكر حدثني عن شاب
كنت قد عرفته في أنطاكية ، ولم يذكر لي نسياس .. أبق على
هذا « الإيروس » ، وضعه يا أبي في معبد ، فيتوجه الذين يرونه
إلى الله بقلوبهم ، لأن « الحب » طبعاً يعرف كيف يسمو بتلك
القلوب ... فاختطفه بافنوس ورمى به إلى اللهب صارخاً :
— يكفي أن يكون نسياس قد لمس ليفيض بكل السموم ! .
ثم أمسك بملء راحتيه الشياح المتألقة والأردية الأرجوانية
والنعال الذهبية والأمشاط والمرايا والتحف والطناير والقيشارات
ورمى بها في الأتون المتأجج .. في حين سكر العبيد بنشوة التدمير ،
فرقصوا وهملوا تهليلاً وحشياً تحت وابل من الشرر والرماد .

واستيقظ الجيران ، وخرجوا في مبادلهم مذعورين ، وأخذ
الجمهور الفضولى يزداد بلا انقطاع ، وعرف أن كاهن أنصينا
قد أغرى تاييس بإحراق متاعها قبل أن تعتزل الدنيا في دير . .
فجزع التجار لما سيصيبهم من الخسار والبوار ، وتساءلوا : أين
إذن قضاة الإسكندرية ؟ وما نفع الشرائع والقوانين ؟ . . ورأى
الشبان أنهم ، إذا هجرت تاييس المسرح ، يفقدون أمتع المشاهد ، وقد
أحبوا فيها من أحبوا من النساء . . وما من قبلة واحدة تبودلت
مع امرأة لم يكن لتاييس فيها أثر ! . . وثارت ثائرة الشحاذين
والمستعطين من العميان والمقعدين ، وتساءلوا : ما مصيرهم ؟ . .
وقد كان فئات مائتها يشبع كل يوم مائتين من المساكين ،
واعتماد عشاقها عند ما يغادرونها وقد طابت نفوسهم أن يرموهم
بل أيديهم فضة ! . .

وأمسكوا بالراهب جميعاً يريدون إلقاءه فى المحرقة وأخذ
تاييس منه ، وهو يصرخ فيهم ضاماً إياها إلى صدره . . وشعرت
تاييس وقد ضغطها عناق بافنوس وخذشت مسوحيه جلدتها
الغض ، بالرعب . . وإذ ذاك أقبل رجل أنيق اللباس متوج الجبين
بالكرفس ، وشق لنفسه طريقاً وسط الجمع الهائج المائج
وصاح :

— قفوا! كقفوا!... فهذا الراهب أخى!...

وكان الرجل نسياس.. لكنه كان فيلسوفاً لا يعرف كيف يسيطر على الجماهير ويؤثر في نفوسهم ويمتلك مشاعرهم، فأعاروه أذنًا صماء، وسقط وابل من الحصى والمخار على رأس الراهب.. فلما يئس نسياس من حملهم على الاستماع له خطرت له حيلة أرشده إليها فجأة احتقاره للبشر، فأخرج كيس تقوده، وكان ممتلئاً بالذهب والفضة، وبدأ يرمى الدنانير والدراهم.. فتهافت عليها القوم متسابقين، ولم يبق ثمرة شيء يرى في الساحة سوى ظهور بشرية لا نهاية لها تعلو وتخفض كأموال البحر الزاخر، تحت وابل مدرار من المعدن الرنان.. وغدا بافئوس نسياساً منسياً!.. فجرى إليه نسياس وغطاه بمعطفه وجره مع تاييس في الأزقة حيث باتا بئامن من المطاردة.. وودعهما نسياس قائلاً: ليتك يا أخى تصون إلى نهاية أهلك كنوز إيمانك ومقتك وحبك!.. وأنت يا تاييس وداعاً!.. عبثاً تنسينى.. وأنا على ذكراك جد حريص!..

وأودع الكاهن تاييس الدير، وأغلق عليها بيده صومعتها، واقترب من النافذة حيث كانت الغانية الساحرة واقفة وادعة

راضية ، وسقط على ركبتيه ، وحمد الله ثلاثاً ، وصاح :
— ما أجهل التي تسير على صراط مستقيم !.. ما أبدع
قدميها وما أبهى محياها ! .
ثم نهض ، وأرخى برنسه على عينيه ، وسار الهويناً مبتعداً ،
وقفل راجعاً إلى الصحراء المقدسة ..

هداها ... وضـلّ

كانت الأنباء تذاع في الصحراء بسرعة ريح السموم ..
لذلك خرج تلاميذ بافنوس لاستقباله بمظاهرات الفرح ، لأنهم
عرفوا ما تمّ على يديه بمدينة الإسكندرية . ولما وصلوا إلى
صومعة الرئيس تمنوا عليه بعض الزيت احتفالاً بعودته ،
وأن يباركهم .. أما بولس العبيط فقد لبث وحده واقفاً
يتساءل : « من هو هذا الرجل ؟ » ، ولم يعرف بافنوس ..
ومع ذلك عند ما خلا كاهن أنصينا بنفسه في صومعته
أحس نفوراً من كل ما حوله : السقف المصنوع من الغاب ،
والخوان ، والقراش ، والكتب المقدسة ، وأوراق البردى ..
كلها لاخت له كأنها آثار رجل ميت .. فأدرك أن شيئاً من
هذه لم يتغير ، ولكنه هو الذي تغير وصار رجلاً آخر ..
وضاقت به صومعته ، مع أنه كان يراها ، بعين الإيمان ،

وكانها لا آخر لها .. فبدأ يصلى ملصقاً جبهته بالرغام .. وقضى
الليل كله ساهراً ، ما اكتحل بنوم ولا أخذته سنة .. ورأى
تاييس بجلاء أظهر مما رآها في « كهف العذارى » ، فزكى نفسه
بقوله : « إن ما فعلته إنما فعلته لمجد الله » .. ومع ذلك بلغ
منه الدهش مبلغه ، لأن قلبه لم يطمئن ، فتنهد : « لم أنت حزينة
يانفسى ، ولماذا أنت تقلقينى ؟ » .. وبقيت نفسه مضطربة
منزعجة ، ولبت ثلاثين يوماً على هذه الحال من السكابة التى
تعد نذيراً للناسك بحزن هائلة وشر مستطير .. لم تفارقه صورة
تاييس ليلاً ولا نهاراً ، ولم يبعدها عنه ، لأنه كان لا يزال يظن
أنها آتية من عند الله ، وأنها صورة قديسة ...

لكنها فى ذات صباح تراءت له فى حلم ، وكان شعرها
متوجّجاً بزهر البنفسج ، وكانت رائعة فى حلاوتها ، حتى إنه صرخ
من شدة الخوف .. فاستيقظ وقد بلّله عرق بارد ، وكانت
عيناه لا تزالان مثقلتين بالنعاس ، ف شعر بأنفاس رطبة دافئة
تهب على وجهه ، أنفاس ابن آوى صغير ، وضع مخليه عند
رأسه ، وأخذ يلهث لهاثة النتن فى وجهه ، ويضحك من
أقصى بلعومه .. فشدهَ بافنوس وأخذ منه العجب كل مأخذ ،
وشعر كأنما انهار تحت قدميه صرح شامخ ...

أجل ! . . . ففي الواقع أنه سقط من ذروة إيمانه
المتقوِّض .

وصحت عزيمة بافوس بعد ذلك على أن يكف عن التفكير
في تاييس بتاتا ، إذ تجاذبته الشكوك ، ولم يتح له الله جلت
مقاصده الهداية . . . لكن تصميمه ظل عقيماً . . . فالغائبة عنه
ظلت حاضرة معه . . . وكأنها تنظر إليه وهو يقرأ ، ويفكر ،
ويصلي ، ويتأمل . . . وكان اقترابها الصوري يسبقه صوت
كخفيف ثوب امرأة أثناء مسيرها . . . ثم جاءت بأشكال مختلفة . .
تارةً مفكرة وقد توج جبينها بأخر تيجانها التي أحرقت ،
ومرتدية ، كما كانت في مأدبة الإسكندرية ، ثوباً أرجوانياً مرصعاً
بأزهار من فضة وإستبرق . . . وطوراً خليعة في سحابة من ثقبها
الشفافة ، مستحمة في ظلال « كهف العذارى » . . . وحيناً
متألقة في أطمار الفرح السماوى . . . وحيناً آخر مفجوعة تدور
عينها في مفازع الموت ، وقد أبانت عن صدرها العارى
المخضب بدم قلبها الحكيم . . . فكان شقاؤه بالغاً أشده ،
ولكنه لم يقنط من رحمة الله ، وتضرع إلى يسوع : « يا مخلصى
خلصنى ! . . . لا تبخ للشبح أن يقضى ما عجز الجسد عن فعله . .
أما وقد انتصرت على الجثمان ، فلا تدع الخيال يصرعنى ! . . . » . .

وصارت لياليه حاماً واحداً طويلاً ، ولم تعد أيامه تختلف
عن لياليه . .

واستيقظ مرة وهو يصعد الزفرات الحرى ، لأن تاييس
كانت قد أتهت تريه قدميها المخضبتيين بالدماء من أثر مشيها حافية
على الرمال في طريقها إلى الدير . . فلما اغرورقت عيناه بالدموع
تأثراً وإشفافاً عليها ، اندست في فراشه . . فلم يبق عنده أدنى
شك في أن صورة تاييس كانت صورة إثم ودعارة . . فثار قلبه
تقززاً وفاض اشمزاً . . وانتزع نفسه من فراشه النجس
انتزاعاً ، وخبأ وجهه في يديه كي لا يرى نور النهار . . وخيم
السكون على الصومعة . . وأخيراً غادره الشبح . . وترك له
تذكر الحلم الفاضح ، ففكر هالعاً مرتاعاً : « لماذا لم أدفعها
عنى ؟ . . لماذا لم أنتزع نفسى من ذراعيها الباردتين ،
وركبتها المتهبتين ؟ . . »

ولم يعد يجرؤ على النطق باسم الجلالة بقرب ذلك الفراش
الكريه . . وأشفق أن تكون صومعته قد تنجست فيستبيع
الشياطين دخولها في كل آن . . ولم تكذبه مخاوفه ، فبنات
أوى السبع التي كانت ملازمة بابه ، لم تخط قط عتبة ، قد
دخلت على التعاقب ، وكنت تحت الفراش . . وعند صلاة

المغرب ، أقبل الثامن ، وكانت رأحتة خبيثة لا تطاق .. وفي اليوم
 التالى انضم التاسع إليها . . . وما لبثت أن صارت ثلاثين ،
 ثم ستين ، ثم ثمانين . . . وكانت كلما تكاثرت تصاغرت
 وتضاءلت . . ولما لم تزد على حجم الفأر ، كانت قد غطت رأس
 الأرض والفراش والمقعد . . ووثب أحدها على الرف الصغير عند
 المضجع ، ووضع مخليه الأماميين فوق جمجمة المومياء التى اتخذها
 بافنوس عظة وتدكرة . . ثم نظر إلى الراهب بعينين ناريتين .
 وفى كل يوم كانت تجيء بنات آوى جديدة يزحم بعضها
 بعضاً . . حتى صارت حشداً غريباً كأنه حبات رمل سفته
 ريح عاصف ، فإذا هو عشرات الألوف من بنات آوى . . .
 وفى تلك الليلة رأى بافنوس ، فى حلم ، عموداً حجرياً مرتفعاً
 يعلوه وجه بشرى ، وسمع صوتاً يقول : « اصعد هذا العمود » . . !
 فاقنع بأن الحلم آتاه من السماء ، فودع تلاميذه ، وأوصاهم
 بأخيهم بولس العبيط ، وسار نهراً وليلاً ، حتى وصل إلى
 خرائب ذلك المعبد الذى بناه الوثنيون قديماً ، وبات فيه بين
 العقارب والجن ، أثناء رحلته العجيبة . . وكانت الجدران المغطاة
 برموز سحرية لا تزال قائمة . . ثلاثون عموداً هائلاً عليها رؤوس
 بشرية ، أو أزهار لوتس لا تزال تسند الحجارة الضخمة . .

لكن في طرف من المعبد طرح أحد هذه الأعمدة حمله القديم
متخلصاً منه ، وكان له تاج على شكل رأس امرأة باسمه ، بعينين
نجلوين وخدين مستديرين ، وعلى جبينها قرنا بقرة .. فعرف
فيه بافنوس العمود الذي ظهر له في حلمه ، وقدر ارتفاعه
بأثنتين وثلاثين ذراعاً .. فقصد البلدة المجاورة وأوصى بصنع سلم
بهذا الارتفاع ، وصعد عليه ، وركع فوق القمة ، وتنى أن
لو أبقاء ربه حيث هو الآن ، في حماه ، حتى يحين حينه
وتوافيه المنون ..

ولم يكن معه من الطعام شيء ، توكلاً على العناية الإلهية ،
متوقعاً أن يمدّه الفلاحون الكرام بما يقوته .. وحدث في عصر
اليوم التالي أن حمل إليه بعض النسوة والأولاد تترأ وماء ..
ولم تكن قمة العمود من الاتساع بحيث تتمكن الراهب من التمدد
بطوله كله ، فنام متربعاً ورأسه ملق على صدره . وكانت
متاعب النوم أشد من عذابات اليقظة .. وعند الفجر كانت
البواشق تصفعه بأجنحتها فيستيقظ متألماً مرتاعاً ..

واتفق أن النجار الذي صنع السلم كان رجلاً صالحاً ، قلق
من جراء تعرض القديس للشمس والمطر ، وأشفق عليه من
خطر السقوط وهو مستغرق في نومه ، فأقام فوق العمود

سقفًا ، وركب حوله سياجًا .. وما لبث أن ذاع في البلاد
صيت هذا المقام العجيب . وأقبل عمال الوادى فى أيام الأحاد
مع نسائهم وأولادهم ليشاهدوا « صاحب العمود » . ولما سمع
تلاميذ بافنوس بمكان عزلته احتشدوا بقربه ، واستأذنوه فى بناء
أكواخ لهم من حوله .. وكان الناسك يأتون كل يوم فرقا
لينضموا إلى تلاميذ بافنوس ، وبنوا لأنفسهم ماوى حول
المنسك الجوى ، وجاء الحجاج من كل فج عميق ، وقدم بعضهم
من بعد سحيق ، فكانوا جياعا عطاشا ، فخطر لأرملة فقيرة أن
تبيعهم ماء بارداً وبطيخا ، فاستندت إلى العمود ، ووقفت
وراء قللها الحمراء وفاكهتها ، تحت خيمة مخططة باللونين الأزرق
والأبيض ، وأخذت تنادى على الماء .. فحذا حذوها خباز
وأحضر أجرا ، وبنى بجوارها مخبرا يبيع فيه الخبز والكعك
للغرباء .. وأخذ سكان مدن مصر الكبرى يفدون تباعا ،
فشيد رجل آخر فندقا لنزول السادة وخدمهم وجماهم
وبغالهم .. وسرعان ما قامت أمام العمود سوق ، أحضر إليها
الصيادون أسماكهم ، والبستانيون بقولهم وثمارهم .. وثم « مزين »
يقص للناس شعرهم فى الهواء الطلق ، ويسلى الجمهور بأقواله الرائقة
ونكاته الشائقة .. وما انقضت ستة أشهر حتى أنشئت بلدة

بمخفر ومحكمة وسجن ومدرسة يعلم فيها شيخ فقيه أعمى ...
وكان بافئوس يعلم تلاميذه وسامعيه :

— من قمة العمود ، حيث وضعنى الله ، أرى بنى البشر
يروحون ويغدون كالنمل . . لكن الإنسان فى باطنه عظيم
كالدنيا ، لأنه يسعها . . وهذه المشاهد المنبسطة أسمى ، هذه
الأديرة والمنازل والسفن والقرى والحقول والترع والرمال
والجبال ، ليست شيئاً بالنسبة إلى ما هو فى باطنى . . فى قلبى
مدن لا تعد وصحارى لا تحد . . والشر ، الشر والموت ، يمتدان
فوق هذا المتسع غير المحدود ، يدثرانه كما يدثر الليل الأرض ،
وفى أنا وحدى عالم أفكار شريرة . .

قال هذا القول ، لأن اشتهاى المرأة كان متسلطاً عليه ،
ممتزجاً بلحمه ودمه . . .

وفى الشهر السابع أتى إليه من الإسكندرية ، وتل بسطه ،
وصائس ، نساء عاقرات يرجون أن يرزقن أولاداً بشفاعته
وبركة العمود ، فحككن خواصرهن بالحجر . . ثم أقبلت
مواكب لا يبلغ الطرف آخرها من المركبات والمحفات
والنقلات ، وازدحمت بالمرضى حول العمود القائم عليه رجل
الله . . فابتهل بافئوس لشفائهم . . وشاعت بين الناس معجزاته . .

وجاء عيد الفصح ، وتدفق على مدينة العجائب هذه سيل
جارف من البشر .. فكنت ترى فوق السهل الفسيح حلل
المصريين المخططة ، وقد اختلطت بيرانس العرب ، وجلايب
النوبيين القطنية ، ومعاطف اليونانيين القصيرة ، وأردية الرومان
الطويلة ، وسراويل البرابرة القرمزية ، وأثواب السراري الذهبية .
وكانت النساء المحجبات يحتزن الطريق راكيات الحمير ، يتقدمهن
خصيان سود يفسحون لهن بالعصى .. وفرش البهلوانيون
سجادهم ولعبوا .. وعرض الحواة الشعابن والأفاعى .. وكانت
جميع هذه المخلوقات المنوعة قد حشرت تحت السماء الصافية
الأديم ، في جو كشاف مختنق بعطور النساء وطيب الزنوج
ودخان الطهي وبخور الصلوات والندور .. وفوق هذه الصور
المتحركة كان العمود وحده ثابتاً ، وعليه بافنوس معلق بين السماء
والأرض .. وارتفع القمر فجأة فوق النيل كذراع إلهة عارية ،
فسالت التلال بأضواء زرقاء .. وخيل إلى بافنوس أنه يرى
لحم تاييس مشرقاً كالورد ، في تألق المياه في كبد الليل الياقوتي .

.....
وعوى صوت في أذن بافنوس ضاحكاً ساخراً من مقامه
العلوى الزائف .. فعرف في ضحكته الشيطان .. وللحال أمسك

السلم الذى كان مستنداً إلى العمود، وهبط درجه .. وزلت قدماه
 والتفت ساقاه .. ولكنه أحس بظل العمود المنحوس فوق رأسه ،
 فأكره نفسه على الجرى .. وكان الكرى قد أخذ بمعاهد
 الأجفان .. وتسلسل بين الحانات والنزل والفنادق إلى درب
 أوصله إلى تلال ليديا ، إلى أن سقط إعياء في مقبرة مهجورة ،
 عند جدث منفرد بقرب ينبوع تظلمه النخيل .. وكان القبر كثير
 الزخرف ولكنه بلا باب ، وفي داخله حجرة مملوءة بالأفاعى ..
 فتشهد قائلاً : « ههنا منزلى المختار ، هيكلى توبقى وندامتى ،
 وخباء حسرتى وإنايتى » .. ثم دلف إليه وطرده الصلال
 بقدميه ، ولبت ملقى على الحجارة ثمانى عشرة ساعة ، ثم ذهب
 إلى الينبوع وشرب براحة يده ، وجمع تمرًا وبغض الجبوب
 من أغصان اللوتس فاقتات بها .. وطابت له هذه المعيشة ،
 فجرى عليها ..

وفي ذات يوم سمع صوتاً يقول : « تأمل فى هذه الصور
 لتتعلم ! » .. فرفع رأسه ورأى فوق جدران الحجرة تصاوير
 تمثل مشاهد مألوفة غاية فى الإتيقان .. بعضها يمثل طهارة
 ينفخون فى النار ، وبعضها يمثل أناساً ينتفون ريش الأوز
 أو يطبخون شرائح الضأن ، وبقرهم صياد يحمل على كتفيه

غزالة مزقتها السهام ، ومزارعين منهمكين في الزرع والحصاد ،
ونساء يرقصن على نغمات الرباب والناي والعود ، وفتاة تضرب
بالطنبور وزهرة اللوتس تتألق على شعرها المعقوص بشكل
بديع ، وكان ثوبها الشفاف يمكن الناظر من رؤية تقاطيع
جسدها الرائقة ، أما ثغرها وصدرها فقد نازعا الأزهار بهاء
الصنع وجمال التكوين .. فلما تأملها بافئوس ، غض من بصره ،
وأجاب « الصوت » بقوله : « لماذا تأمرني بمشاهدة هذه الصور ؟
إنها ولا شك تمثل الحياة الترايية للكافر الدفين هنا تحت
قدمي .. إنها حياة رجل ميت ! .. »

فرد عليه الصوت : « إنه ميت ولكنه قد عاش ، وأنت
ستموت ، ولن تكون قد عشت ! »

من ذلك اليوم لم يذق بافئوس طعم الراحة .. واستمر
الصوت يخاطبه بلا انقطاع .. ونظرت إليه الضاربة بالطنبور
محدقة من تحت أهدابها الطويلة ، ثم كلمته هي أيضاً : « انظر !
إني خفية وحسنة . فأحبيني ! . وأفرغ في حضني الهوى
الذي يضنيك ! إن خوفك لا يجديك نفعاً ، ولن تستطيع
الفرار مني .. أنا جمال المرأة .. فيا أيها المعتوه أين المفر ؟

سوف تجد صورتى فى بهاء الأزهار ، وأناقة النخيل ، وطيوان
الحمام ، وقفز الغزلان ، وتموج الغدران ، وضياء القمر . . وإذا
أغمضت عينيك وجدتنى فى سويداء قلبك وقرارة نفسك . .
منذ ألف سنة ضمنى إلى صدره الرجل الراقدهنا ، ملفوفاً
بأكفانه ، فوق مضجع من حجر أسود . . منذ ألف سنة
تملى القبلة الأخيرة من فى ولا يزال رقادہ معطراً بشذاها . .
إنك تعرفنى يا بافنوس حق المعرفة . . فكيف تتجاهلنى . .
أنا أحد تجسّدات تاييس التى لا تعد . . فقد عاشت تاييس
قديمًا فى أسبارطة باسم « هيلانة » ، وكانت لها حياة أخرى
فى مدينة طيبة . . وأنا التى كنت تاييس طيبة . . والآن ، وإن
كنت لست سوى خيال ، لا أزال قادرة على الاشتراك فى
ذنوبك أحملها عنك أيها الراهب الحبيب . . فما مصدر
دهشتك ؟ . . أيّان تذهب تجد تاييس حتّى أمامك . . .
فدق بافنوس جبهته بالحجارة وصرخ من شدة الفزع . .
وكانت الضاربة على الطنبور تترك الحائط فى كل ليلة ، وتتقدم
وتتكلم بصوت جلى ، ممزوج بأنفاسها الباردة . . تطلب إليه
الهوى والتسليم لها ، وتطلب إليه الإذعان . . .
واستيقظ فى إحدى الليالى على صوت ثلجت بسماعه

أطرافه ، إذ عرف فيه صوت الرجل الميت ، وهو ينادى
مستعجلاً ، في همس خفيف : « هيلانة ! .. هيلانة ! ..
تعالى استحمى معى ! تعالى سريعاً ! » .. فأجابته امرأة
لامس فيها أذن الراهب : « لا أستطيع النهوض يا حبيبي ،
إن رجلاً راقداً فوق صدرى » .. فأحس بافنوس فجأة بخده
وقد استقر على ثدى امرأة ، عرف أنها الضاربة بالطنبور ..
ولكنها تخلصت قليلاً ، ورفعت صدرها ، فتعلق بافنوس تعلق
اليأس بالجسد الناعم ، الدافئ ، العطر .. وصاح وقد أضنته
مُنية القضاء المبرم والرغبة فى الموت الزوأم : « البشى ! ..
البشى يا سمائى ! .. »

لكنها كانت إذ ذاك واقفة بالباب ، فضحكت ، وفضضت
أشعة القمر ابتسامتها ، وقالت : « وماذا يفيدك بعد بقائى ؟ ..
إن ظل الظل يكفى عاشقاً مثلك أوتى مثل هذا الحدس النير ،
فضلاً عن أنك قد أثمرت ! .. فقيم ترغب بعد ذلك ؟ ..
وداعاً .. إن عشيقى ينادينى ... »

فكأنما انقضت صاعقة على الراهب ، نخر مغشياً عليه ..
ولما أفاق رأى حوله رهباناً فى حلل سوداء ، يصبون الماء
على صدغيه ويتلون التعاويذ ، وقد وقف كثيرون منهم

خارج القبر حاملين سعف النخل .. فقال أحدهم ..

« سمعنا ونحن نجتاز الصحراء صيحات مرتفعة من هذا القبر ،
فدخلنا فالفيناك طريقاً فوق الحجارة مغمى عليك .. ولا ريب
في أن الشياطين صرعوك ، ولما شعروا بدونا ولوا هارين . »
فرفع بافنوس رأسه ، وسأل بصوت خافت : « من أنتم
يا إخواني ؟ .. ولماذا تحملون سعف النخل ؟ .. أو ليس هذا
لأجل دفني ؟ .. »

فأجابه أحدهم : « ألا تعلم يا أخي أن أبانا أنطوان ، وقد بلغ من
العمر خمساً بعد المائة ، قد أتاه نذير بأن نهايته قد دنت ، فنزل
من جبل كلزان حيث كان معتزلاً ، ليبارك أبناءه الروحانيين ! »
فأجاب بافنوس : « وا أسفاه ! . لست جديراً بمثل هذا
الفضل العظيم .. وليس سكان هذا الربع سوى عفاريت
ووطاويط .. صلوا من أجلي ، أنا بافنوس كبير كهنة أنصينا ،
أشقى عباد الله .. »

فأما سمعوا اسم بافنوس ، هزوا سعفهم ، ورددوا التساييح ،
تحميداً للرجل الذي يعده الناس بالغاً يوماً من الفضل مبلغ
القديس أنطوان ..

وبدأوا المسير وانضموا إلى الحفل المنظم تنظيماً تاماً كفرق

الجيش العرمم . . وبغته تعالى هتاف الجميع إلى عنان السماء :
« هو ذا الولي العظيم ! حبيب الله ، أبونا أنطوان ! » . ثم ساد
السكون ، والتصقت كل الجباه بالرمال ، فتقدم أنطوان . .
يمحض النصح ويبذر العظات والبركات . . فلما رآه بافنوس
يقترب منه ، خر ساجداً ، وصاح غاصاً بآلامه المبرحة :
« أبتاه ! . . أبتاه ! . أغثنى فإني من الهالكين ! . لقد وهبت
روح تاييس لله ، وعشت فوق قمة عمود ، وفي قاع قبر . .
فتصلبت جبهتي من طول التصاقها بالرغام ، حتى صارت مثل ركبة
الجل . ومع ذلك لا يزال الله معرضاً عني . . باركني يا أبت
فأنجو ، هزّ الشغام فأطهر وأعود نقياً أتلاً كالثلج . . »

فلم يجبه أنطوان ، بل رشق رهبان أنصينا بتلك النظرة التي
ما كان بوسع أحد الشبات أمامها . . ثم استقر ناظره على بولس ،
الملقب بالساذج ، فحدق فيه طويلاً . ثم أشار إليه بالدنو منه . .
ولما أبدى الجميع دهشتهم لمخاطبة القديس رجلاً مختل الشعور ،
قال أنطوان : « إن الله قد أنعم على هذا الرجل بما لم ينعم به على
أحد منكم . . ارفع بصرك يا ولدي بولس ، وأخبرنا بما تراه في
السماء . » . فرفع بولس الساذج عينيه ، وأشرق وجهه ، وانطلق
لسانه فقال :

— أرى في السماء سريراً مزداناً بسجوف من أرجوان وذهب
تحيط به ثلاث عذارى ساهرات على حفظه ، كي لا تقرب منه
روح غير الروح المجتابة التي أعد لها السرير . العذارى الثلاث
يخاطبني قائلات : إن قديسة على أهبة مفارقة الأرض ،
تايبس الإسكندرية على وشك الموت ، وقد أعدنا لها مضجع
مجدها ، لأننا نحن فضائلها . الإيمان ، والخوف ، والحب .
فسأله أنطوان : « وماذا ترى أيضاً يا بني الحبيب ؟ ... »
فنظر بولس ببله من حوله ، حتى وقعت عينه على كاهن أنصينا ،
فشحب وجهه من جزع قدسي ، وعكست حدقتاه لهباً خفياً
وقال : « أرى ثلاثة زبانية قد امتلأوا فرحاً ، واستعدوا لقبض
هذا الرجل ، وهم يشبهون برجاً وامرأة وساحراً . . . والثلاثة
يحملون أسماءهم موسومة بميسم من حديد حام ، الأول على
جبينه ، والثاني على بطنه ، والثالث على صدره ، وأسمائهم هي :
الكبرياء ، واللذة ، والشك »

ولما نظر رهبان أنصينا إلى أنطوان بقلق ، قال القديس :
« قد أعلن الله حكمه العادل ، فلنعبده ، ونحن سكوت . . »

.....
أما بافنوس فقد وقف مصعوقاً ، ولم ير ولم يسمع شيئاً غير هذه

الكلمات التى ملأت وحدها أذنيه ، وهى : « تاييس على وشك الموت ! » .. ثم وثب فجأة صارخاً : « اذهب لتراها .. لتراها مرة أخرى ! .. فما فائدة الـكون بعد تاييس ؟ .. »

وأخذ يعدو ، ولم يدر أين هو ، ولا إلى أين يذهب .. لكن الوجدان ساقه وسدد خطاه .. فسار رأساً إلى النيل ، وقفز إلى ظهر سفينة لبعض النوبيين ، وهناك انبطح فى مقدمتها ، تلتهم عيناه الفضاء ، وصرخ بحزن وغضب :

— تبألى من مجنون معتوه ، لأنى لم أحظ بتاييس لما سمح لى الزمان ! .. يا ما أشد حماقتى لأنى اعتقدت أن فى الدنيا شيئاً سواها ! .. يا ويح الجنون ! .. كيف لم أدرك أن السعادة الأبدية إنما هى فى قبلة واحدة من قبلاتها ، وأن الحياة بدونها لا معنى لها ، وليست سوى حلم مزعج ؟ لقد فتحت لك ذراعيها المفطورتين من لحم ممتزج بعطر الزهر ، ولم تتملّ لذة الاستغراق فى حضنها ، والاستناد إلى صدرها العارى الذى لا يوصف ! .. تاييس على وشك الموت ! .. فلن تكون لى أبداً ! .. أبداً ! .. أبداً ! ..

يا أنوار النهار العسجدية ! .. يا ظلال الليل الفضية ! .. أيتها النجوم ! أيتها السموات ! .. أيتها الأشجار المرتعشة

قمها ! أيتها الوحوش الضارية ! أيتها الحيوانات الأليفة !
يا نفوس الرجال المتلهفة ! . ألا تسمعون : « تاييس على وشك
الموت ! » ..

أيتها الأنوار الساطعة ، والأنفاس الصاعدة ، والعطور
الطيبة .. المحي .. وافنى ! ..

يا بهاء الكون ورواه ، وأشكاله وأفكاره ، اختفى واختبئ ! .
تاييس على وشك الموت ! ..

تاييس كانت جمال العالم ينعكس حسننها على كل ما يقربها
فيصبح زينة للناظرين . . . ما أشد بدهة أنى مائت لموتها ! .
ولكن أنى لك الموت أيتها النطفة القذرة الجافة ! أنى لك الموت
أيها الجنين المنقوع فى مرارة الضّرّ وحزازة الدمع ؟ أيها السقط
الشقي ، هل يعلق بوهمك أنك ستذوق طعم الموت ، أنت الذى
لم يعرف الحياة ؟ . . أريد جحماً أبدياً لا ينطفئ سعيها ، ولا
تخبو نيرانها ، كيما أبخر فيها أبدية السخط التى احتوت عليها
نفسى . . .

.....
وعند طلوع الفجر ، دخل الدير . . فوجد تاييس راقدة
على الفراش فى ظل شجرة التين ، يغشاها بياض ناصع ، وقد

تعارضت ذراعاها على صدرها ، ووقف بجانبها نساء مقنعات ،
يرددن صلاة النزع : « ارحمني يا الله كعظيم رحمتك ، حسب
كثرة رافتك ، امح معاصي » .
فناداها : — تاييس ! ..

فرفعت جفניה ، وولت مقلتيها البيضاوين صوب
الصوت .. وتراجعت الراهبات .. وكرر الراهب ندائه :
« تاييس .. » !.. فرفعت رأسها ، وخرج من بين شفتيها همس
خافت : « هذا أنت يا أبى ؟ .. أتذكر ماء الينبوع ، والتمر
الذى لما هزنا إلينا الجذع تساقط رطباً جنيئاً ؟ .. فى ذلك اليوم
يا أبى ، ولدت للحب .. للحياة . »

ثم انقطعت عن الكلام ، إذ دهمها الموت ، وكلل العرق
البارد جبينها .. ومزق جلال السكون صوت يمامة نائحة .. ثم
امتزجت تنهدات الراهب وزفراته بمزامير العذارى : « اغسلنى
كثيراً من إثمي ، ومن خطيئتي طهرنى .. لأنى عارف بمعاصي ،
وخطيئتي ألامى دائماً ... »

ثم جلست تاييس فجأة فى فراشها ، وانفتحت عيناها
البنفسجيتان ، وقالت ، وهى تحديق فى الأفق وقد مدت ذراعيها
نحو التلال البعيدة : « هو ذا ورد الصبح الأبدى ! .. » ..

ولمعت عيناها ، وصبغت حمرة خفيفة وجنتيها ، وبدت
أحلى وأجمل مما كانت في أى وقت من الأوقات .. فركع بافنوس
أمامها ، واحتضنها بين ذراعيه السمرادين .. وصرخ بصوت بلغ
من الغرابة فى أذنه مبلغاً أنكره هو نفسه :

— لا تموتى ! .. إني أحبك فلا تموتى ! .. اسمعنى يا حبيبتى
تايس .. لقد خدعتك ومكرت بك .. وما كنت إلا مغتوهاً
شقيماً .. فما من شيء له وزن وهو حق إلا الحياة الدنيا متاع
السرور ، وإلا الحب الجسدى ! .. إني أحبك ! فلا تموتى ،
لا تدعى للمنون ! .. إنك جميلة ، فتانة ، آية الآيات ! .. تعالى
نتبادل الحب ، ونرشف كوؤوسه ! .. انهضى يا تايس ! ..
لم تسمعه .. كانت عيناها تسبحان فى اللانهاية ، وتمتمت :
« السماء تفتح .. أرى الملائكة والأنبياء والقديسين .. فى
وسطهم أحسن الصالح مملوء اليدين بالزهور .. إنه يسم لى
ويدعونى إليه .. يأتى إلى ملكان .. هما ذان يقتربان ..
ما أجملهما ! .. إني أرى الله ... »

وتنهدت ابتهاجاً .. واتقلب رأسها على الوسادة بغير حراك ..
ماتت تايس .

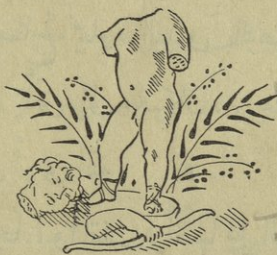
فعانقها بافنوس باشتهاء وغل وحب .. فزجرته كبيرة

الراهبات قائلة: «تبّاً لك من لعين»!.. ووضعت أصابعها
برفق على جفني تاييس..

فتراجع بافنوس وهو يرتجف، وعيناه تشتعلان، وأحس
بالأرض تسيخ وتنشق تحت قدميه.. ثم رتل العذارى نشيد
زكريا.. وما لبثت أصواتهن أن انقطعت في حلوقهن، إذ
رأى وجه الراهب.. فولين مذعورات صارخات: «وطواط!
وطواط». فقد حلت بيافنوس نقمة ربه، فسخه.. فاستحال
قبحاً مروّعاً مجسماً، إذا ما مرَّ بيده على وجهه، أحس بشاعة
خلقه..

وارحمته له... هداها.. وضل!

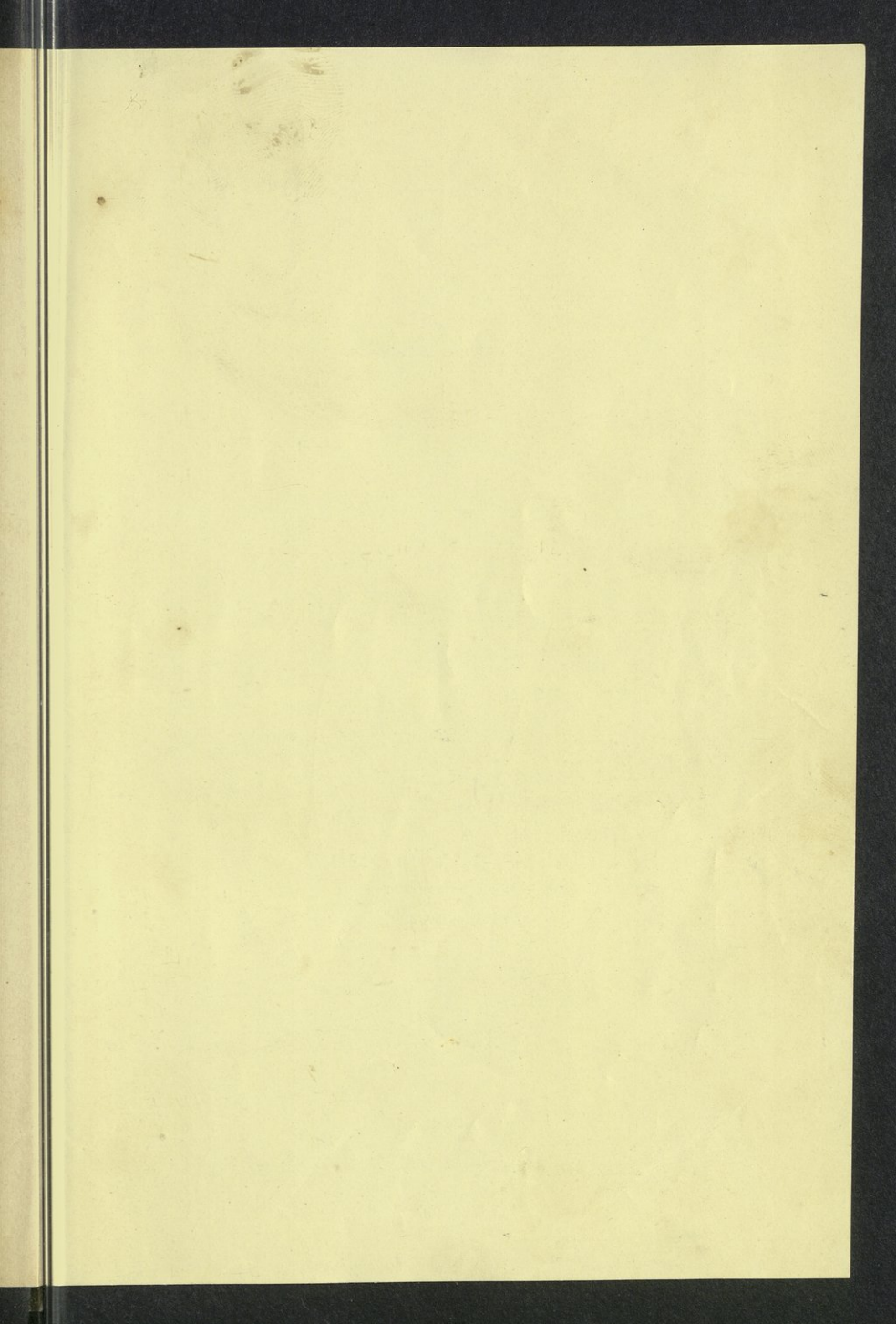
هذه الرواية من تأليف (أنا) نول فرانس



وقد ارتكب الراهب
خطأ فاحشاً بعد
أنه ارتكب



كانت تدعى .. سافو



(٢)

المصرية

إلى أولادى عندما يبلغون سن العشرين
« ألفونس دوديه »

فى يوم من أيام صباى البيا كرت أسير على رصيف
فندق شبرد حيث كانت مكتبة أوربية كبيرة . رأيت فى
واجهتها كتابا أنيقا عليه صورة ملونة لامرأة غربية فى حلل
شرقية ، وعليه اسم « سافو » . فوقفت طويلا . . هل سحرتنى
الصورة الشرقية الغربية ؟ أو العنوان وما فيه من موسيقى ؟
من ذلك اليوم أحبت اللغة الفرنسية ، وتمنيت أن
لو عرقتها لأقرأ سافو . بل ولأترجم سافو ! . . والآن ، بعد نحو
عشرين سنة ، أجدنى أخلص بسافو ، بعد ما عشت طالبا
غريبا فى باريس كحبيب سافو ، وبعد ما رأيت سافو كثيرات
بين الحى اللاتينى ومونبارناس . .

قرأت « سافو » مرات عدة ، وأثرت فى نفسى قبل رحيل

إلى باريس تأثيراً عظيماً ، وأدركت عندئذ ، على سذاجة شبابي
وقلة تجربتي ، ما بها من حقائق ، وتمنيت أن لو عشت يوماً في هذه
الحقائق نفسها ، ومرت بي تجارب الفرح والألم ، واللقاء والفرق ،
والوصل والهجر ، مثل « چان جوسان » سواءً بسواء . . .

ولقد وضعها الكاتب الإنساني الكبير « ألفونس دوديه »
إنذاراً للشبان من جاذبيات الفؤاد ونزواته . . تلك التي يسميها
بعضهم نزغات الشيطان . وأراد مؤلف « سافو » أن يحذرهم
الاتصال بالغانيات والعيش معهن تحت سقف واحد ، لا سيما
إذا كان هؤلاء النساء يجبنهم فعلاً ، حباً خالصاً للحب ،
لا للمادة والغرض . . فما أغرب الهجر ، باسم العقل ، مكافأة
للحب ! . . .

چان جوسان شاب إقليمي من عائلة عريقة محافظة تشغل
بالسلك السياسي أباً عن جد ، وقد جاء وهو على بساطة الريف
وطهارة القلب يدرس العلوم السياسية بباريس ، ليصبح قنصلاً
لبلاده في الخارج ، فلم يكد يصل إلى عاصمة النور والحبور حتى
بهر ، وظل تائهاً في ذلك المحيط الهائل ، الزاخر بالفضائل والذائل .
لم يكن يدرى أين يضع قدمه . لم تكن لديه فكرة عن الحياة ،
فما بالك بالحياة في باريس ؟ ! كان سجين قريته ، وسجين أسرته ،

وها هو ذا الآن أصبح حرّاً طليقاً في باريس ، فكيف لا يعيش
 من نورها بصره ؟ إنه في عنفوان شبابه يتوثب صحة وفتوة ..
 يرى النساء ولا يعرفهن ، يسمع بالحب ولم يذقه .. براءته وعفته
 وقوته تزيد عند الغواني حظوة . وهذا سر نجاحه في سهرة الليلة ،
 عند الفنان الثرى « ديشيليت » في حفلة راقصة متنكرة ، من
 تلك الحفلات التي لا يقف مرجها وضجيجها ولذتها وخمرها
 وغناؤها ورقصها ولعبها ... أو مفاجأتها وخطرها ، عند حد ..

— انظر إلىّ !... هكذا !... إلى أحب لون عينيك !...

ما اسمك ؟

— جان ..

— جان بغير لقب ؟

— جان جوسان .

— أراك من الجنوب . كم تبلغ من العمر ؟

— واحداً وعشرين عاماً .

— فنان ؟

— كلا يا سيدتى .

— آه ! الحمد لله !...

هذه هي الأسئلة التي وجهتها إلى جان امرأة فتاة متنكرة
في ثوب « مصرية » بأساورها وقلائدها وحلقانها ، وفضتها
وزهبها ، وعصبتها وشالها ، وعطرها وكحلها ، وخواتمها وخلخالها ..
فبهت لصورتها ، وبهت لبزتها ، وبهت لأستئتها ! ..
كان هذا كله غريباً عنه ، جديداً عليه . كان قد جاء به صديق
إلى هذه الحفلة الباهرة .. ثم لم تلبث أن ضاعت منه آثاره ، فظل
واقفاً ، حائراً ، خجلاً .. يقرب الطرف في الراقصين والصارخين
من المصورين والمثاليين والشعراء والفنانين ، والنساء الجميلات
الموديل و المانكان والممثلات والخليلات . . . حتى جاءت
تلك المصرية تسحره بنظرها ، وتسحره بعبقها ، وتسحره
بإقبالها . . .

كان كأنه جاء سوق الفنون هذا يعرض جماله ، وفاز
بالجائزة .. فإن فتاة فاتنة في زى « يابانية » صاحت لمراه : « ياللفتى
الريفى الجميل .. الجميل ! . . » . ومرت به حسناء أخرى في زى
« أسبانية » ذات ثوب من الدانتلة الحريرية الناصعة ترقص
مع رجل متنكر في زى « الأوباش » ، فدعكت بلهفة فى أنفه
طاقمها الصغيرة من الياسمين الأبيض .

لم يفهم من هذه المقدمات والمناوشات شيئاً ، وزعم نفسه

أضحوكة ، فراح ينزوى فى ركن هادئ من الشرفة ، فلم تلبث
المصرية أن لحقت به ، وجلست بالقرب منه .

هل كانت شابة ؟ هل كانت جميلة ؟ لم يكن يدرى ، لأن .
زيها الشرقى كان قد جعل لها لوناً خاصاً بها منسجماً معها .. لعلها
مثلة .. دنت منه ، تنظر إليه وقد اعتمدت رأسها بيدها ،
تحدثه بزمج من العذوبة ، والجد ، والضى .. أرادت أن تعرف
منذ كم من الزمن هو فى باريس ، وإذا ما كان امتحان العلوم
القنصلية الذى يستعد له صعباً جداً ، وهل يعرف الكثير من
الناس ، وكيف حدث أنه الآن فى سهرة ديشيليت بحى «أوربا»
البعيد كل البعد عن الحى « اللاتينى » ؟ ..

فأخبرها أنه جاء بصحبة صديق له قريب الشاعر
« لاجرونزى » ، ذاك الذى هو شديد الإعجاب به ، وقد
أثر فيه ديوانه عن الحب .. وتتم :

« لكى أهبي المرمر الفخور بجسمك يا سافو »

« قد وهبت كل الرم الذى يجرى فى عروقى »

فإذا بها قد انقبضت واربدّ لونها ، وهبت واقفة قائلة :
« إنى لا أحب الشعر ! » .. ثم تكلفت اتخاذ قرار كأنها تبذل
جهداً ، وقالت : « مساء الخير » .. ثم اختفت .

فضل الفتى الريفى المسكين مندهشاً .. ماذا أصابها ؟ ماذا
قال لها ؟ حاول أن يعرف ، فلم يجد إلا أن الأولى به الذهاب
إلى النوم .. فاتجه للخروج ، شاعراً بالخجل لاقتحام كل ذلك
الجمهور الهائج حتى الباب .

وكانت قد خفّت سورة الرقص .. وإذا به يلقى صاحبه
يستوقفه وهو محمل اليدين بزجاجات الشمبانيا قائلاً : « أين
كنت ؟ إنى أبحث عنك فى كل مكان . هلم إلى مائدتنا حيث
توجد نساء .. فيهن اليابانية التى فتنت بك ، وقد أرسلتني
للبحث عنك . خف وأسرع » . فكاد يجرى فى أعقابه .. لقد
كان ظامئاً ، وكانت نشوة المرقص تغريه ، وهناك الفاتنة الصغيرة
تشير إليه ..

يبدأ أن صوتاً همس قرب أذنه بلهجة الأمر المتوسل :
« لا تذهب ! ... »

كان صوت المصرية تأمره فيطيع .. ولم يكن ذلك راجعاً
إلى شكلها ، فإنه لم يكن قد تبينها ، وكانت اليابانية الأخرى
تعجبه أكثر منها .. ولكنه أطاع إرادة أقوى من إرادته ،
وشوقاً خفياً قاسياً لا يرحم .
لا تذهب ! ...

وهما هذان الآن في عرض الطريق، جنباً إلى جنب .. وكاد
الفجر يطلع والمركبات تنتظر في غبشة الصبح . والكناسون
والعمال في طريقهم إلى عملهم ينظرون إلى هذه الحفلة الصاخبة ،
وإلى هذين العشيقين المنصرفين إلى وكرهما ...

سألته : « عندك أو عندي ؟ » . فرأى أن يكون ذلك عنده
دون أن يدري سبب هذا التفضيل ، فأعطى الحوذى عنوانه
البعيد .. ولم يتحدث إلا قليلاً خلال الطريق الطويل ، وقد
أخذت بين يديها إحدى يديه ، فشعر بصغريديها وبرودتهما .
ولولا هذه البرودة ، وهى ظاهرة عصبية ، لزعم أنها نائمة .

ووقفت المركبة بشارع « جاكوب » أمام فندق « طلاب » .
وكان عليهما صعود أربع طبقات عالية عسيرة .. فاقترح أن يحملها
ضاحكا ، ولكن بصوت خافت ، حتى لا يوقظ الدار الراقدة ،
فقبلت .. فحملها بساعديه العبلين كالطفل ، وصعد الطابق
الأول في نفس واحد ، وهو سعيد بحمله الرقيق ، وقد التفت
حول عنقه ذراعان ناعمتان عاريتان .

وبدا الطابق الثانى أطول من الأول ، دون مسرة .. وقد
استرخت المرأة واستسامت وزاد وزنها ، وصار معدن أساورها ،
الذى كان منذ لحظات كأنه يداعبه ، يضغط شيئاً فشيئاً ،

بقسوة في لحمه .. وفي الطابق الثالث صعد الهوينيا ، وجعل يلهث كمن يحمل بيانو ، بينما هي تتلذذ وترتاح لمركبها .. حتى الدرجات الأخيرة ، التي صعدوها واحدة بعد واحدة ، كأنها جبل شاهق وقد دارت به الدنيا .. ولم يعد ما يحمله امرأة ، وإنما هو شيء ثقيل مروع يخنقه خنقاً ، ويكاد في كل لحظة يهزم بتركه ، وإلقائه في غضب ، ولو قتله .

ولما وصلا إلى باب حجرتة ، فتحت عينها قائلة :
«أسرعان؟!» .. فقال في نفسه : «أخيراً ..» . ولكنه لم يفه بها .. وكان شديد الشحوب ، وصدره يعلو . وينخفض يكاد ينفجر ..

صعود هذا السلم ، ضباب الصبح الرمادي الحزين ، يمثل كل حديثهما ، وهو قصتهما من أولها إلى آخرها ...

استبقاها يومين .. ثم راحت ، تاركة له أثر جسد ناعم وقيص حريري .. لا يعلم من أمرها إلا اسمها وعنوانها :
«فاني لجران — ٦ شارع الاركاد» ، وكلمة على بطاقتها الصغيرة ، الأنيقة ، المعطرة : «وإذا أردتني فاطلبنى تجدني دائماً طوع يدك ..»
ولكنه كان جادا ، حازما ، يخشى لهو باريس وعيها .. فلم

يفكر في تجديد تلك النزوة الغرامية الطارئة ، نزوة ذات مساء .
وكان بينه وبين امتحان نوفمبر ثلاثة أشهر ، وبعده يتمرن ثلاث
سنوات أو أربعاً في مكاتب الحكومة القنصلية ، ثم يذهب
إلى مكان ناءٍ بعيد ..

وكان مستعداً لهذا النفي الاختياري ، فهو موروث كما ذكرنا
في أسرته . وعلى ذلك لم تكن باريس عنده إلا المحطة الأولى
من سفر طويل ، وهذا ما يحول بينه وبين الارتباط بأية علاقة
جدية من حب أو صداقة .

وبعد أسبوع أو أسبوعين من تلك الحفلة الراقصة ، كان
جوسان قد أضاء مصباحه ، وأعد كتبه على منضدته ، وراح
يذاكر ، عندما سمع دقاً خافتاً خجولاً على الباب ، وظهرت امرأة
في ثوب ناصع أنيق ، فلم يعرفها إلا بعد ما أزاحت عن وجهها
قبعها وقناعها . ولما رأت نظرتة الحائرة على كتبه أمسكت
بنسخة من مجلة « الطواف حول العالم » ، ووعدته بالألا تزعبه ،
وراحت تتظاهر بالمطالعة .. ولكنه ما كان يرفع نظره إليها
حتى يلاقى نظرها .

لله ما أشجعه فتى يجلس إلى مكتبه بينا هذه الحسناء الشائقة
بين يديه ، فلا يأخذها في أحضانها ، تلك المرأة التي كلها فتنة

وإغراء ، برأسها الصغير وأنفها القصير ، وشفقتها المتلهفة على
القبل ، وقوامها اللدن الذى هو نداء إلى الغرام ، وثوبها الباريسى
السليم الذوق الذى يختلف تماما عن ثوب « الفلاحة المصرية »
الذى كانت تتنكر به ليلة عرفها .

وخرجت فى الصباح التالى مبكرة .. وعادت فى الأسبوع
مرات .. وكانت فى كل مرة تدخل بذلك الحياء والشحوب ،
وذات اليدين الرطبتين ، وذات الصوت المختلج تأثراً ...
وهى تقول : « أواه ! إني أعلم أنني أضايقتك ، وأننى أرهقتك ..
وكان علىَّ أن أكون أشد من ذلك أنفة .. ولكن آه لو علمت ،
ففى كل صباح أقسم وأنا منصرفة من لدنك ألا أعود . فإذا
ما جاء المساء تملكنى شوق إليك كالجنون » .

فكان ينظر إليها باسملاً لا يكاد يدرك كنهها ، لأنه لم يكن قد
عرف حتى الآن إلا فتيات تافهات ، من البارات أو الملاعب ،
لا يتركن فى داره إلا « القرف » من ضحكهن الغبي ، وأيديهن
أيدى الطاهيات ، فلا رقة ولا فتنة .. فكان يفتح وراءهن
نافذة غرفته ، لتغيير الهواء ومحو آخر آثارهن .

أما هذه المرأة « فاني » فقد كانت النعومة والطلاوة والخفة
والرشاقة والذوق والأناقة .. وكانت تضرب فى كل فن بسهم ،

من شعر وتصوير وموسيقى وغناء .. لذلك كانت أحاديثها ممتعة
منوعة . ولكن إلى اليوم لم يكن قد عرف عذاب الانتظار
وخفقان القلب ، خفقانه بالاشتراء وفروغ الصبر .. تأتي متى
شاءت ، وترحل دون أن يسألها عن ماضيها أو حاضرها ، أو
يتطلع إلى حياتها ، أو يغار عليها .

وشرعا يخرجان سوياً في آخر الأسبوع إلى الضواحي ،
وينامان أحياناً في الفنادق الصغيرة المبتوثة في كل مكان حول
باريس إلى مدى أميال .. وكانت تبدو ، في تلك الخلوات ،
كأنهما بنت عشرين .

وألحت عليه ، في آخر نزهة لهما ، أن يذهب إلى بيتها ،
ولم يكن قد فعل من قبل ، وأكدت له أنها حرة تماماً ،
وحيدة طليقة .

ففتحت لهما الباب خادم عجوز ريفية بادية شراسة الخلق .
فقالت فاني وهي متعلقة بعنقه : « هذه ماشوم .. وأنت ، أتعلمين ؟
هوذا حبيبي ... مليكي ... قد أتيت به ... فأسرعي وأضيئي
النور في كل مكان ، واجعلي البيت جميلاً ! ... » .

فتأمل جان فيما حوله فرأى لوحات زيتية صغيرة مهداة إلى
فاني ، وتمثال « سافو » من المرمز للمثال « كودال » يشبه

خليته فاني .. وأعجب بذلك الأثاث القليل المترف الذي تجلى فيه
الذوق السليم .. ولم ينغص عليه إلا ما بدا من شراسة الخادم ،
ونظرة الريبة التي حددتها إليه ، حتى اضطرت فاني إلى صرفها ،
فخرجت وقرقعت بالباب وراءها ، فقالت فاني : « لا تهتم للأمر ،
فهى ناقمة على حبي إياك ... وهى تدعى أنى بذلك أخسر حياتى ..
فهو لاء الفلاحون من الطمع على شىء كثير ! وإن طهيها لأفضل
منها .. ذق هذا الطاجن من الأرانب .. يا حبيبي ! »

وتحدثا عن ليلة تعرفهما ، وعن شغفها به إذ رآته لأول مرة
فى سهرة ديشيليت ، ورغبتها فى أن تخطفه خطفاً حتى لا يأخذه
منها أحد سواها ! وقضيا ليلة حب بذلت له فيها بالروح
والجسد ما لا يبذل فى سنين ..

ولم يطلع النهار حتى استيقظ على صوت ماشوم ، وهى
تصرخ عند السرير :

— إنه هنا .. يريد مخاطبتك ؟ !

فصاحت فاني :

— هنا ؟ ! أأست إذن حرة فى بيتى ؟ كيف سمحت

له بالدخول ؟

ثم نهضت ساخطة ، وهى نصف عارية ، وسألت چان ألا

يتحول عن مرقدہ لأنها لا تلبث أن تعود .. ولكنه لم يطمئن
إلا عندما نهض بدوره ولبس حذاءه في قدمه ! وطرق سمعه
صوت رجل ينتهر بادیء ذی بدء ، ثم يشكو ويتألم ، ويتوسل
ويبكي ، ويتنهد .. صوت يختلط بصوت آخر فيه من فحش
القول ما ذكره بشجار الحانات .. إذن فهذا ترف كله دنس ..
وهذه المرأة دنسة مثله ... على نسق أولئك اللواتي احتقرهن
من قبل !!

ثم عادت تلهث ، تعدل برشاقة شعرها ، وترثي للرجل يبكي ،
وتتهمه بالبلاهة . فلما رأت حبيبها ، وكان واقفاً ، لابساً ، صاحمت
غضباً لقيامه من الفراش ، وأمرته بالعودة إلى الرقاد سريعاً .. ثم
لانت ، واكتسب صوتها نعومة وحرارة :

— لا! لا! لا تذهب عني هكذا .. إني واثقة من أنك لن تعود.

— ولم لا؟

— أقسم أنك لست غاضباً .. وأنت ستعود .. أواه !

لشدها أعرف طبعك !

فأقسم لها كما أرادت .. ولكنه لم يعد إلى الرقاد رغم
توسلاتها ، وأيمانها بأنها حرة في بيتها وحياتها ، تفعل ما طاب لها ،
ثم رضيت برحيله ، ورافقته حتى الباب ، خافضة جناح المذلة ،

محاولة أن تنال الصفح والغفران .. واستبقته في الدهليز لتقضى
لباتها من عناق طويل قبل الرحيل .. وسألته : « متى ؟ » .. وهى
تحدق بعينها فى قرارة عينيه . وكان سيجيبها بكذبة دون شك
تعجلاً للذهاب ، فإذا بالجرس يدق ويقف ، وماشوم تخرج
من مطبخها ، ولكن فانى تشير إليها بالأفتتح ، ويبقى
الثلاثة حيث هم ، بلا حركة ولا كلام .

ويسمعون تنهدات حارة مخمدة ، ثم صوت خطاب يدفع
من تحت الباب ، ثم صوت أقدام تنزل السلم الهويناء ..
فقلت فانى : « أو لم أقل لك إني حرة فى أمرى ؟ .. إليك ! »
ودفعت إليه بخطاب المحب المهجور .. خطاب غرام كبير
خسيس مكتوب بالقلم الرصاص فى عجلة على منضدة مقهى ،
يسأل فيه المسكين الصفح عن جنون الصباح ، ويعترف بأنه
ليس له أى حق قبلها ، إلا ما تريد أن تمنحه له ، ويتوسل جاثياً
ألا تنفيه بغير رجعة ، واعدأ بأن يقبل كل شىء ، ويحتمل
ما لا يحتمل .. على شريطة ألا يفقدها ...

وإذا بها تضحك ضحكاً هو الشر كله .. هذا الضحك قد
أبعدها عن قلب چان الذى أرادت أن تغزوه .. لم يكن
خيراً بقلوب النساء .. لم يكن يعرف أن المرأة التى تحب

لا تدع ، لغير مخلوق واحد ، هو حبيبها ، سبيلاً إلى عطفها أو
حنانها أو شفقتها أو ميلها .. قال چان وقد أخذ بيديها :

— ومع ذلك أنت مخطئة في سخريتك .. فهذا الخطاب
مؤثر حقاً .. فلم تطردين صاحبه ؟

— لم أعد أريد ذلك ، وإني لا أحبه .

— بيد أنه كان خليلك ... وقد اشترى لك هذا الترف

الذى تعيشين فيه ، وهو ضرورى لك ! .

فقالت بلهجة صريحة :

— كل هذا كان حسناً جداً قبل أن أعرفك يا حبيبي ..

الآن هو عبء وعار .. وقلبي يتميز منه ويشور عليه .. آه ! ..

أعلم أنك تريد أن تقول إن علاقتنا غير جدية ، وأنت لا تحبني ..

ولكن هذا شأنى .. وسواء أردت أم لم ترد فساأهرك على حبي !

فلم يجب واكتفى بضرب موعد للغد ، وانطلق ، تاركاً

للخادم ماشوم بقية ما فى جيب « الطالب » من مال .. وكان

الأمر عنده قد وقف عند هذا الحد .. فبأى حق ينقص حياة

هذه المرأة ؟ وماذا يستطيع أن يعوضها عما تفقده معه ؟

وكتب إليها بهذا كله ، فى اليوم نفسه ، مخلصاً قدر

استطاعته ، دون أن يصرح لها بأنه شعر فى علاقتهما بما اهتز له

واشماز منه ، عقب ليلة الهوى ، من تنهدات الخليل الخدوع ،
وضحكاتهما الفاجرة ..

لقد كان فى ذلك الفتى الإقليمى الذى أرسل فجأة إلى
باريس ، كرامة الريف ، وعزة الأبوة ، ورقة الأمومة ..
فاستنكف هذا كله .

أماهى فقد عادت دون أن تئأس من رفضه المتوالى ومن
الباب الموصد فى وجهها ومن الاعتذارات الكاذبة ..
فكتبت له : « لم تعد لى كرامة ... حقاً إن الهوى هوان .. »
وكانت تتربص بساعات تردده على المطعم ، وتنتظره أمام المقهى
الذى يقرأ فيه الصحف ، ولكن دون بكاء ، أو تمثيل وشجار ..
فإذا كان برفقة إخوانه قنعت بأن تتبعه حتى ينفرد ، فتسأله :
« أتريدنى الليلة ؟ .. كلا ؟ إذن سيكون ذلك فى مرة أخرى » .

وتنصرف تنعثر فى أذيالها ، وديعة ، جميلة ، تاركة له الندم
على قسوته ، والخجل من كذبه التى يرددها فى كل لقاء :
« الامتحان على الأبواب .. لا وقت عندى .. فيما بعد »
راجياً أن يسافر بعد الامتحان فى الإجازة إلى الريف لتتساه .
ولكن لسوء الطالع لم يكد ينتهى الامتحان حتى مرض
جان مرضاً شديداً ، فوقفت فأنى إلى جانبه ، تبذل له من عنايتها

وعطفها وجبها ما لا تبذله الأم لابنها .. ولم تكن تنام من ليالها ،
عشر ليال سويا ، إلا ساعتين على كنبه حقيرة ، كنبه حجرة
الطالب فى فندق بالحى اللاتينى .. فلما خفت عنه الحى وتنبه
لوجودها ، قال : « ولكن أفلا تذهبين يا مسكينتى فانى إلى
بيتك ؟ إبنى الآن أحسن حالاً .. فيجب أن تطمئنى ماشوم »
فطفقت تضحك .. فلم يعد هناك بيت ، ولم تعد هناك ماشوم .
لقد باعت الأثاث ، وفضت العقد ، ولم يعد لها إلا الثوب الذى
عليها .. فإذا طردها الآن فإنها تصبح على قارعة الطريق .



هكذا صبر الحب وظفر .. عانت كثيراً ولم تئأس قط .
وها هى ذى قد ارتبطت به اليوم رباطاً وثيقاً لا انفصام له .
إنما جاءت لتمر فى حياته بكل تجاربها وما اكتسبته من خلان
لها ، خلان رجال ذوى تجارب أيضاً ومعارف وفنون ..
كانت هى الأقوى بهذه الخبرة ، وهذه المعرفة ، وهذا الحب .
إن حبها إياه انتقام منها لسواه ، أو هو انتقام لنفسها فيه من
رجال سواه .

ووجدت لهما مسكناً من ثلاث غرف وشرفة كبيرة
فى الدور الخامس :

— إنه مرتفع ... ولكنك ستحملني ... فما كان الذ
ذلك ، أتذكر ؟

إنه يذكر حتماً .. لأنها تعلقت بعنقه مرة أخرى باحثة عن
مكانها ، في أول ليلة تعرفهما ، مكانها الذي اقتعدته من جسمه
وقلبه جميعاً .

كان الوكر هو الفخ .. وكان لا بد له من أن يقع فيه ، فما
أكثر الرجال الشرفاء المستقيمين الذين تزعمهم حياة الخارج
المضطربة في الفنادق والمطاعم ، ويتمنون حياة « البيت » لأنها
في فطرتهم أثر التربية العائلية واعتدال المزاج .

~~وشعرا بضروب حجة من المسرات في شراء الأثاث من هنا~~
وهناك .. وأبلغ چان أهله في الريف بتحوله من الفنادق إلى شقة ..
فأرسلت إليه عمته « ديقون » — حارسة الدار — بعض النقود
والأثاث .. ووضعت فاني في ذلك العش كل ذوقها ، وبدأت
حياة جديدة سعيدة .. فلا يكاد چان يغادر وزارة الخارجية ،
حيث يتمرن على الأعمال القنصلية ، حتى يبادر إلى البيت ،
لأنه أصبح جنته . وأبدت فاني في الطهي مهارة لا تقل عن
مهارتها في الهوى . وقد طاب چان عيشاً وقر عيناً .. فهل هو
الآن عاشق ؟ ! كلا .. ولكنه عارف بحميل الحب الذي يشمله .

وكان يتساءل : كيف رضى أن يعيش قبلا ذلك العيش المضطرب ، يتنقل من فندق إلى فندق ، ومن مطعم إلى مطعم ، ومن فتاة إلى فتاة ؟ ! إن هناءه اليوم لا خطر عليه منه غداً . فقد أندر فاني سلفا بالفراق المحتوم يوما . أما أهله فلو عرفوا ، وخاصة والده ، فإنهم سيغضبون حتماً من هذا العيش المشترك المقضى عليه بأنه ضد الشرف .. ولكنهم بعيدون عن باريس .. أبوه لا يستطيع مغادرة مزارعه الواسعة ، وأمه مريضة لا تستطيع أن تخطو خطوة إلا مستندة إلى ذراع ، وعمته ديشون تتولى البيت ، وأختاه صغيرتان ، وعمه « سيزار » زوج ديشون هو طفل كبير لا يتركونه يسافر وحده !

وهكذا جعلت الأيام تجري رخاءً .. حتى كان ذات يوم في طريقه إلى البيت ، فسمع صوتاً يناديه ، وإذا به المثل المشهور كودال ، مبدع « سافو » والمهندس الفنان الثرى ديشليت الذي تقام في داره السهرات المشهورة ، جالسين في مقهى ، فسألاه عن سافو ، فإن أحداً لم يعد يراها .. فدهش جان ، لأنه لم يكن يعرف أن « سافو » المثل كودال ، هي خليلته « فاني لجران » .. فاستنكف هذه المباغته .. ودفعه ذلك إلى الكذب وإنكار أنها ما زالت تعيش معه .. كما دفعته إليه أيضاً الرغبة في معرفة

ما يجهله عنها .. قدما له كأسا ، ولكنهما قطرا فيها بجديهما
سمّا .. فعرف أن فاني هي سافو ... هي التي أوجت إلى كودال
آيته الفنية ، لأنها كانت خليلته ... وهي أيضا التي أوجت إلى
لاجرونري ديوانه الرائع « كتاب الحب » ، لأنها كانت
خليلته .. وهي التي أوجت إلى سواهما آيات الصور والتماثيل
والأشعار والقصص .. وهي التي انتهت حياتها الغرامية المضطربة
بالسجن ستة أشهر في « سان لازار » على ذمة التحقيق في قضية
برئت هي منها ، ولكن خليلها « فلامان » حكم عليه بالسجن
عشر سنين .. وقد كان فلامان هذا رجلاً جميلاً حفاًراً فقيراً
جن بها جنوناً ، وخشى أن تهجره إذا قصر في توفير أسباب الترف
والرفاهية لها ، فراح يزيف الأوراق المالية حتى كشف أمره ،
وسيق إلى السجن ، بين عويلها واتحائها وقبلاتها ، وهي تصرخ
بصوت يلين الصخر الجامود : « لا تسأم يا حبيبي فسوف تعود
أيام الهناء ، وسوف نعود فنتمتع بالغرام ! .. »

ومن يوم هذه المأساة ، وقد ذاع صيتها كلها ، قد تأثرت
بحكاية هذا الحب المقهور ، وتراحم عليها الأغنياء من هواة الروح
والجمال ، فاتخذت منهم عشاقاً لشهر أو لأشبع ، ولم تعد تطيق
الفنانين ، حتى جاءها جان فاستسمت له وهامت به .

سمع هذا كله چان .. وسمع أن هذا قليل من كثير في
حياة خليلته التي ليست شابة كما تبدو ، لأنها الآن في نحو
السابعة والثلاثين ! فشعر بأنه يموت من كل هذا السم الذي
تجرعه .. فبعد ما أحس بثلج يغمره أحس النار تلتهمه ..
واستقر رأيه على القطيعة .. وانصرف على هذا العزم إلى مقهى
يكتب إليها بذلك خطاباً . يا للعار ! أيعاشر امرأة رأت كل
هؤلاء الرجال ؟ ! أيعيش تحت سقف واحد مع خلية مزيف
النقود التي لبست ثوب السجن وانتحبت في محكمة الجنايات
على خليلها ، وأرسلت إليه بين العبرات والقبلات وعداً بالوفاء
والولاء ! ؟ ... هو ! هذا الإقليمى الشريف من بيت عريق
محافظ يعاشر قارورة هذا الإثم كله ؟ !

فجرب كتابة خطاب ، ولكنه عاد فمزق خطابين أو ثلاثة .
وكانت إلى جانبه في المقهى فتاة مسكينة من اللواتي يأكلن
الخبز بالجسد والدمع ، تأكل « رنجة » مشوية بنهم ، وتنظر إلى
كوب البيرة التي أمامه لم يذقها ، والتمستها منه ، فأعطها إياها ،
فتجرعتها مرة واحدة .. فشعر بالشفقة ، وأدرك مبلغ ما يصيب
المرأة في حياتها من شقاء .. وطفق يراجع نفسه في ألمه ،
ويحكم من الجانب الإنسانى .. نخليلته في الواقع لم تكذبه ، ولم

تنكر حياتها ، فقيم يلومها ؟ أيلومها لما قضته في سجن سان لازار
وقد خرجت بريئة ؟ أيلومها على رجال من قبل ؟ أفلم يكن يعرف
ذلك ؟ بأى حق يلومها ؟

على أن هؤلاء الرجال كانوا شخصيات بارزة معروفة ،
يستطيع أن يلقاهم ويحدثهم ويرى صورهم في كل مكان ؟ ...
أ يكون ذنبها وجرمها أنها فضلت لحظوتها وآثرت بحبها
هؤلاء ؟ ...



نزلت عن رسائل الغرام التي وجهها إليها هؤلاء جميعاً ..
لأنها قدمتها قرباناً لحبها إياه وبرهنت على أنه الأثير ، الوحيد ...
وشرع يحاسبها حساباً عسيراً ، بفرز الرسائل قبل أن يلقياها في
النار ، وترسم في ذهنه وتنطبع في نفسه تلك العبارات البليغة
الجديرة بالحفظ ، لأنها مكتوبة بأقلام مشهورة ، وكأنه قد
قرأها وحفظها من قبل .

وشعر بأن جو باريس لم يعد يصلح لهما روحياً ومادياً ..
وسكننا ضاحية «شافيل» تحيط بها الغابات والأحراج .. ولكن
چان كان ما يزال يشعر بالغيرة .. فهو إذن محب . وكان
يغار خاصة من مزيف النقود فلامان ، فقد كان جميلاً أشقر

الشعر ، محبوباً مثله .. أما هي فلم تكن ترضى أن تذكر
فلامان أمامه بخير ، ولكنها كذلك لم تكن ترضى أن يذكر
بشر .. كانت تقول : « إنني لم أعد أحبه ، لأنني أحبك ..
ولكن يستحيل علي أن أحتقر الرجل الذي عبدني إلى حد
الهُوس والإجرام » . وكان جان يحترم على رغم صراحتها ، وكثيراً
ما كانا يغضبان ، ولا يدوم غضبهما إلا قليلاً .

حتى كان ذات يوم رأى فيه ، في القطار ، فتاة مشرقة
الحسن ، طيبة القلب ، ذهبية الشعر ، لها ثغر طفل دائم
الابتسام .. يفيض شبابها بالهناء .

بادلته النظرات البريئة ، فاضطرب .. فإذا بأبيها يعرفه
ويعرف أهله .. فتحدثوا ودعواه إلى بيتهم .. فتردد عليه ..
وخيل إليه أنه يحب الفتاة .. وإذا بزواجه منها يصبح
قاب قوسين أو أدنى ! .. وتحدد مواعده فعلاً ! ..

وهو يعتذر لخيلته ، شاحباً ، لغياب طويل . وراح يكذب :
إن عليه أن يقضى أربعاً وعشرين ساعة بين أهله ، ثم يسافر
إلى مرسيليا ليحل محل زميل له .. فقهرته ، وانفجرت ساخطة ،
وقالت له : قل إنك تتزوج وكفى .. إن أهلك منذ زمن طويل
يعدون لك ذلك ، فإنهم يهلعون من علاقتنا ، فهنئاً لهم

فقد ظفروا .. وقد وجدوا لك عروساً تصلح لك ... فهي
لا شك حمقاء ! ..

وضحكت كمدأ .. فاعترف لها ، وسألها : ماذا يضيرها مادام
فراقهما محتوماً يوماً ؟ فراحت تسبه ، ولا تدع في الشتائم لفظاً
إلا وتنته به .. فسمعها صابراً ، لم يحاول إسكاتهما .. ولكنها
صمتت بغتة ، وقد خارت قواها ، وجشت أمام حبيبها ، وتهدت ،
وسأله صفحاً وغفراناً ، لأنها تحبه : « عفواً ومغفرة .. إنى أحبك ..
ليس لى فى الدنيا سواك يا حبيبي .. يا حياتى .. لا تفعل هذا ..
لا تتركنى .. ماذا تريدنى أن أصبح من دونك ؟ ... »

فلشتد تأثره .. لقد وقع ما كان يخشاه .. فانتقلت الدموع
منها إليه .. وحاول أن يخفف ما بها وبه ، فقال لها : إن فراقهما
على أى حال محتوم .. وهى ترد عليه صارخة كأنها تتعلق بآخر
أهداب الأمل :

— لم يؤن الأوان بعد .. لو أن عليك الرحيل لتوسلت
إليك قائلة : ابق أيضاً ، وتمتع بالحُب .. فهل تزعم أن مثل حبي
إياك يمكن أن يوجد مرتين فى الحياة ؟ .. إن أمامك الوقت
للزواج .. وأنت شاب .. أما أنا فلا ألبث أن أنتهى ..
وعندئذ طبعاً يحين الفراق .

أراد النهوض .. ولكنها راحت تغرقه بقبلاتها وعبراتها ،
وتتهار بين قدميه ، وتربت على وجهه ، تحاول أن تشعل مرة
أخرى النار تحت الرماد .. تردد له كل الكلمات العذبة التي
تذكره بالماضي السعيد ، وتعهده بأن كل ما مضى لا يذكر بجانب
ما هو آت .. فهي تعرف قبلات ، ونشوات ، وجنونات ،
وغراميات أخرى ، وستبتكر من هذه كلها جديداً له ..
— قل إنه ليس حقاً .. ليس صحيحاً أنك تهجرني ،
وتتخلي عني ..

وهكذا جرده هذا اليأس الأليم من سلاح القطيعة ،
فوعد بالبقاء ... يا لها من ليلة في الليالي ! .. لقد فنيا فيها معاً
روحاً وجسداً .. خفتت أصوات الشكوى والجزع ، وبقيت
« آه » العميقة التي تهز الكائنات منذ بدء الدهور .

قال لها إنها سيرحلان .. فزعمته مازحاً ليمتحنها .. ولكنه
قال إن أمامه وظيفة خالية في أمريكا الجنوبية ، وأمامه خمسة
عشر يوماً يعد فيها حقائبه .

— وزواجك ؟

— لا حديث عنه بعد اليوم .. إن ما أعمله لا صلاح بعده ،
وأراني لا أستطيع فراقك .

— يا بني الحبيب ! . فهل تلك البلاد التي تقصدها بعيدة ؟
— بعيدة جداً .. فى بيرو .. هناك لا يستطيع فلامان
أن يتبعك !

فظلت مستغرقة فى أحلامها ...

إنه الآن فى مرسلها منذ يومين ينتظر فانى لتبحر معه .
كل شىء معد .. الأمّا كن محجوزة فى الدرجة الأولى بالباخرة ..
وهو مضطرب الأعصاب ، نافذ الصبر ، كلما صفرت باخرة
انقبض منه الصدر .. حبيس غرفته فى الفندق ، لا يجروء على
الخروج ، كما لو كان مجرمًا ، أو هاربًا ، يخشى أن يلقى فى شارع
أباه ، أو ذاك الذى كان سيكون حماه .

أمامه ٢٤ ساعة أخرى ، لأن فانى لن تأتى إلا يوم الأحد ..
فقد كانت تلك الأيام الثلاثة سيقضيها بين أهله .. ولكن أباه
لما علم بفسخ الزواج ، وأدرك الأسباب ، نهر ابنه وطرده ،
وحرمه حتى وداع أمه ... بينا كانت كل أخت من أخته
تبكى ، وتتعلق بذراع أبيها سائلة إياه غفرانًا لأخيهما الكبير ..
ومضى جان دون أن يقبلهما ، أو يرى والدته .. وكان يختنق
لهذه الذكرى .. من فراق بغير وداع .

وكانت الليلة الأخيرة لا يكاد ينتهي لها سواد ، وكأن الغد
قيام الساعة .. وكان يتقلب على فراشه يتمنى النور و بزوغ
الفجر ليلقي البحر ... والنسيان .

وطلع النهار جميلاً مشرقاً ، كأنه يرحب بالحب والحياة .
وبينا هو يغادر الفندق ليذهب إلى لقاء فاني في المحطة ، إذا بغلام
يقدم إليه خطاباً وصل هذا الصباح ، فدهش .. من ذا يمكن
أن يكتب إليه ، وما من أحد يعرف عنوانه إلا فاني ؟ ولم يكد
ينظر إلى الغلاف حتى خفق قلبه .. وأدرك ...



« كلا .. فلست راحلة معك ! .. إنها حماقة أكبر كثيراً
من أن تحتملها قواي .. فامثل هذه الوثبات يا صديق لا بد من
الشباب ، ولم يعد لي .. أو من عاطفة عمياء مجنونة تنقصك
وتنقصني .. وها قد انقضت علينا خمس سنوات ، كانت فيها
إشارة منك تحملي على قطع الدنيا من أقصاها إلى أقصاها ..
لأنك لا تنكر أنني أحبيتك بكل جوارحي .. لقد أعطيتك
ما كان عندي .. فلما لزم فراقك تألمت ألماً شديداً لم أشعر به نحو
رجل قط من قبل .. ولكن مثل هذا الحب يقصم الظهر .
إن رؤيتك جيلاً فتياً إلى هذا الحد كانت تجعلني أرتجف دائماً

للدفاع عن كل هذا ! . . والآن لم يعد ذلك في وسعي ، لقد جعلتني أحيا فوق ما ينبغي ، وآلم فوق ما أستطيع . . وقد وصلت إلى نهايتي .

« وعلى ذلك فإن هذه الرحلة البعيدة تخيفني ، فإنني أكره التنقل ، فضلاً عن أن النساء يذبلن سريعاً من وهج الشمس ، ولن تكون قد بلغت الثلاثين عند ما أصبح أنا عجوزاً شمطاء . ولقد قرأت مرة في أحد أعداد « الطواف حول العالم » أن هناك بلداً شرقياً ، إذا خانت فيه الزوجة زوجها ، ربطوها حية مع قطعة ، ووضعوها في جلد حيوان مذبوح لساعته ، ثم يلقون بالجلد المربوط على المرأة والقطعة على شاطئ البحر ، تحت ضوء الشمس . فتصرخ المرأة وتموء القطعة ، ثم تمزق كلتاها الأخرى ، بينا الجلد ينكمش عليهما ، ويضيق بهذه المعركة المروعة ، حتى ينتهي الخفقان ويخفت الصوتان . . فهذا هو أو نحوه المصير الذي ينتظرنا معاً .

« كان علي أن أقول لك ذلك من قبل ، ولكنني لم أجد من نفسي شجاعة ، إذ رأيتك قد اعتزمت هذا الأمر وصممت عليه . وكان قد لعب بصدرى غرور المرأة الطبيعي إذ غزوتك بعد هجرك وولتتك بعد قطيعتك . ولكنني في نفسي

أحسست بأن شيئاً قد انكسر وانتهى . كيف لا ؟ بعد كل هذه الهزات العنيفة ؟ فلا تزعم أن هذا من أجل ذلك المسكين فلامان ! إن الأمر بالنسبة لك وله ولكل الناس قد انقضى ، وقلبي قد مات . . ولكن بقي لى ذلك الطفل الذى خلفته وأخفيته عنك من أييه فلامان الذى غادر أمس الليمان ، متحمساً ، عاشقاً كما كان فى لقائنا الأول . . . فتصور إذ تلاقينا لأول مرة بعد عشر سنين ، كيف قضى طول ليله يبكي على كتفى . . .

« حقاً يا بنى العزيز أننى أحبيتك حباً فوق ما أحتمل ، وقد تهدمت منه . . والآن أصبحت فى حاجة إلى أن أحب بدورى ، وأن أدلل ، وأن يعجب بى ، وأن أدلع كالطفل . . وذلك الرجل سيكون عندى قدمى ، لا يرى قط فى وجهى تجعيدة ولا فى شعرى شيئا . . . وإذا تزوجنى كما ينوى ، فإنه يرى ذلك نعمة أنعم بها عليه . . قارن إذن . . ثم لا ترتكب حماقة . . فقد اتخذت حيطتى ، فلن تعرف طريقى ، ولن تجد لى أثراً .

« من مقهى صغير بالمحطة أكتب إليك ، وأرى خلال الأشجار البيت الصغير الذى قضينا فيه أسعد وأقسى

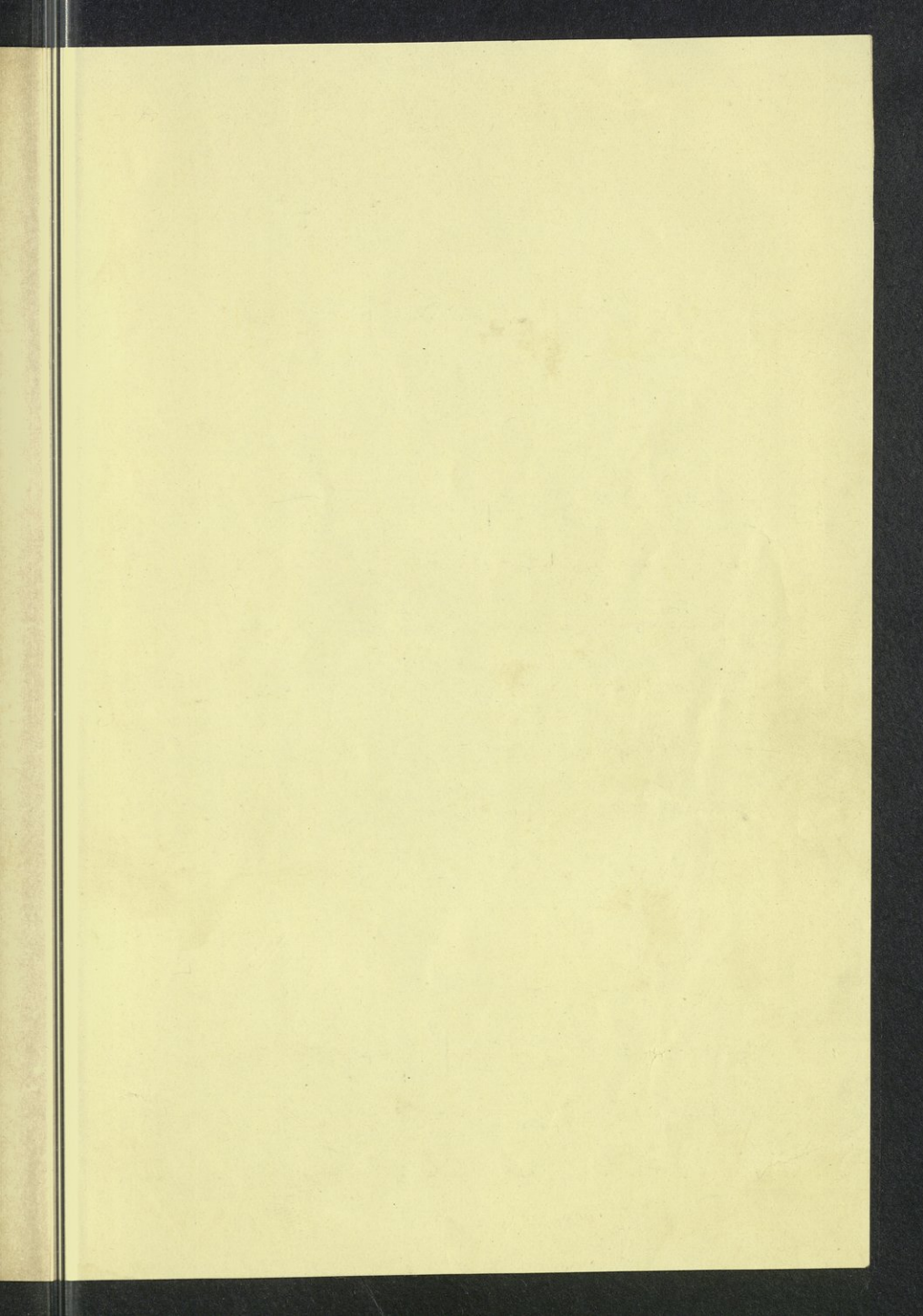
الأوقات تتأرجح على بابه يافطة « للإيجار » ، في انتظار
نزلاء جدد ..

« ها أنت ذا حر طليق ، لا تسمع بعد اليوم لى ذكراً ..
فوداعاً .. قبلة ، أخيرة .. على العنق ، يا حبيبي ... »





كانت تدعى .. ذات الكاميليا



غادة الكاميليا

غرام في آلام

عندما أردت تلخيص « غادة الكاميليا » ، قامت أمام عيني ثلاث غادات كاميليا ، كل واحدة أعظم فتنة من صاحبتيها ، كأنهن « النعم الثلاث » ... غادة القصة ، وغادة المسرح ، وغادة الحياة الصميمة ... وما أكثر ما قرأت القصة ، وشهدتها بعد ذلك في مصر وباريس ، ودرست حياة « مرغريت جوتييه » ، أو بالأحرى « ماري بلسي » الخاصة الحقيقية ، التي يمكن تلخيصها من أولها إلى آخرها في كلمتين : غرام وآلام .. فإنها عاشت بالحب ، وماتت به .

ليت شعري ! هل آخذ القصة التي رواها « دوماس الصغير » ؟ أو المسرحية التي شذبت لمقتضيات التمثيل ؟ أو الحكاية الواقعية بكل ما في الواقع من عذوبة وعذاب ؟ ! إن القصة قد قرأها الناس جميعاً ، والمسرحية قد شهدوها جميعاً .. أما حياة مرغريت

الخاصة فما زالت تحفى على الكثيرين .. وهذا هو الجانب الشائق
الذى نرجو أن تنبغ عليه ، فى العربية ، الأضواء الأولى
من المعرفة .



يكاد المرء يدهش إذ يجد أن طفولة « الغانيات » بينهم
مشتركة ، سواء طفولة « كريزيس » و « تاييس » و طفولة
« سافو » و « غادة الكاميليا » ...

انحدرت « غادة الكاميليا » من أرومة متنوعة الأعراق ،
فيها من الدم النبيل قطرة ، ومن الدم الخسيس قطرات .. وقد
رأت النور فى ١٥ يناير من عام ١٨٢٤ .. فيكون قد انقضى
الآن على مولدها أكثر من قرن من الزمان .. وما زالت
حكايتهما تزدد على الأيام خلوداً .. ولا يمكن أن يوجد ، فى أية
ناحية من نواحي الأرض ، رجل له قلب ، يقرأ أو يشهد غادة
الكاميليا ، ولا تدمع له عين .

وكان أبوها رجلاً بهي الطلعة ، وكانت أمها فاتنة .. وكلاهما من
فلاحى « نورمانديا » ومن قرية « سان جرمان دى كليرفى » ..
وولدت للرجل ويدعى « ماران بلسى » بنت قبل غادتنا دعاها
« دلفين » وبعد عامين ولدت « ألفونسين » التى اشتهرت بعد

ذلك « بمارى بلسى » وأصبحت « غادة الكاميليا » التى لم يلحق مجدها فى الحب مجد .. ولكن أباه خاب أمله فيها ، إذ كان ينتظر ولداً ذكراً ، فأنزله سكره وسخطه وغضبه على رأس أمها وعاملها بنذالة أسوأ معاملة ، حتى اضطرت إلى هجر البيت والالتجاء إلى أهل لها مع طفلتيها ، وآواها رجل خير ، ثم التحقت بخدمة سيدة إنكليزية بباريس ، ولكنها ماتت وألفونسين فى الثامنة من عمرها .. واستغل أبوها « ألفونسين الجميلة » فى مختلف الخدم والأغراض ، وزج بها مرة تحت سقف صديق عزب له . ثم ذهب بها أخيراً إلى باريس وعاد إلى القرية من دونها .. فأشيع أنه باعها للعجرتلعب وترقص معهم .. ومن يومها أطلقوا عليه « الساحر » ، وتوقعوا أن تحقيق به لعنة ربه . وقد مات فعلاً فى ٨ فبراير سنة ١٨٤١ فى أشد حالات البؤس والفاقة والمرض .

وإذا كنا قد أطلنا فى التمهيد حياة ذات الكاميليا ، فإنما فعلنا ذلك لاستخلاص العظة والعبرة من طفولة مشتتة لأم لها ولا بيت . فهل تلام الفتاة ؟ لعلها أولى بالعطف والرحمة والثناء .

يمكننا القول بأن بطلتنا قد دخلت باريس تلبس « قبقبا »

من خشب ! . . . تلك هي الموعودة بعد قليل بغزو عاصمة النور
والحبور والذوق السليم . وكان لها من العمر خمسة عشر ربيعاً ،
وما زالت يومئذ طفلة وجلة تتكلم عن الشيطان والأشباح
والذئاب ! . . . ولزمتها سنوات قلائل لتصبح تلك الفلاحة
الصغيرة ، في أعين أشد القضاة تشدداً وتعسفاً ، أنموذجاً أعلى
لسلامة الذوق والأناقة والرشاقة ، حتى شهد لها «جول شنان» ،
وهو من أكبر الصحفيين في عصرها ، في مقدمة الطبقات
الأولى من « غادة الكاميليا » بهذه العبارات :

« إنها إنسانة فتية جميلة ، أفتن ما تكون محيا ، تسحر بمجرد
وجودها ، كل من حولها ، وتشير إعجاب كل من يراها لأول
مرة ، فيتساءل : من تكون تلك الفتاة ؟ فلم تكن فيها للتصنع
ذرة . كانت لها النظرة الصافية ، والحركة المحتشمة ، والخطوة
الثابتة ، حتى كأنها امرأة من أكبر الطبقات . . . وكان طابع
الجد على محياها ، وكانت ابتسامتها آمرة ، فلا تكاد تشك في
أنها ، في مجموعها ، أميرة . . . »

وبعد ما وصف زينتها أضاف : « . . . وكانت تحمل كل
هذه الأشياء الجميلة كما لو كانت قد ولدت في الدمقس والحريز ،
في قصر منيف ، من أصل رفيع ، على رأسها تاج ، وتحت

قدميها عالم من المعجبين المفتونين . وكذلك كانت هيبتها
منسجمة مع لهجتها ، وكانت فكرتها منسجمة مع ابتسامتها ،
وكانت زينتها منسجمة مع هيبتها .. وعيشاً يحاول المرء أن يجد في
أعلى قنن الدنيا إنسانة أعظم جمالاً ، وأوفر كمالاً ، وأشمل انسجاماً ،
في زينتها ، وفي بزتها ، وفي كلماتها .

— آه لو علمت كم أحبك ...

— أحقاً ما تقول ؟

— قسماً ! ...

— حسناً ! .. فإذا وعدتني بإيفاد كل رغباتي دون عبارة

أو إشارة ، أو أخذ أو رد .. فربما أحبيتك ...

— كل ما ترغبن !

— ولكن اعلم أني أريد البقاء حرة ، أفعل ما يطيب لي

دون أن أسأل منك جملةً أو تفصيلاً ، فقد طالما بحثت عن خلٍّ

فتيّ بلا إرادة ، وحبيب بلا ريبة ، ومحبوب بلا حقوق ، فلم أجِدْ

إليه سبيلاً . فالرجال بدلاً من الرضا بما كانوا لا يحامون به مرة

في العمر واحدة ، لا يلبثون أن يسألوا خليلتهم أن تؤدى لهم

حساباً عن الحاضر ، وعن الماضي ، بل وعن المستقبل ! وما إن

يعتادوها حتى يطمعوا في بسط سيادتهم عليها ، وكلما أعطوا
ما يرغبون زادوا طمعاً ولجاجة . فإذا اعتزمت اليوم أن أتخذ
حبيباً فلا بد له من صفات نادرة ثلاث : أن يكون واثقاً ،
وطيعاً ، وكتوماً ! ...

— ستجدني مني كل ما تشتهين !

— سوف نرى !

— ومتى نرى ؟

— فيما بعد !

— ولم التسويف ؟

فقلت ، وهي تتملص من ذراعيه ، وتتناول من طاقة كبيرة
من زهور الكاميليا الحمراء النضرة زهرة وضعتها في عروته :

— لأنه ليس في الإمكان دائماً تنفيذ المعاهدات في يوم
توقيعها ، وهذا مفهوم ... فقال وهو يضمها في أحضانها :

— ومتى أعود فأراك ؟

— عند ما تغير هذه الكاميليا لونها !

— ومتى تغير لونها ؟

— غداً بين الساعة الحادية عشرة ونصف الليل . فهل

طببت خاطراً ؟

— أو تسألينني في هذا ؟

— لا تبح بكلمة من هذا لصديقك أو لبرودنس
أو لأي كان .

— لك على ذلك !

— الآن قبلي ، ولنعد الى المائدة .

هذه هي فاتحة غرام إسكندر دوماس الصغير بتلك التي
خلدها باسم «غادة الكاميليا» .. وليس علينا إلا أن نضع اسم
« ماري » بدل « مرغريت » و « إسكندر » بدل « أرمان »
و « كليمانس » بدل « برودنس » .

وقد جرى المشهد في غرفة زينة ماري دوبلسي ، بعد نوبة
سعال حادة أصابتها ، فتركت أصحابها يتعشون ، ولجأت إلى مخدعها
حتى لا تنغص عليهم صفاءهم .. فتبعها دوماس إليه ، حبا ورحمة :
« وكانت منكبة على وجهها ، على كنبه كبيرة ، وقد حلت
أزرار ثوبها ، وأسندت قلبها بيد وأفلتت الأخرى .. وعلى
المنضدة طست فضي ممتلئ نصفه ماء ، وفي هذا الماء تتلوَّى
خيوط من الدم .. »

هذا هو فجر تلك العاطفة المتأججة ، الذي لم يكد
يبرزغ حتى انكفأ راجعا إلى ظلمات العدم والنسيان ، كأنه ندم

لطلوعه على دنيا .. صفوها كدر والوصل هجران .

نحن في شهر سبتمبر سنة ١٨٤٤ ، ولإسكندر دوماس الصغير
من العمر عشرون عاماً ، مثل ماري .. وكان فتى وسيم الطلعة ،
طويل القامة ، ممتلئاً صحة وتوثباً ، يمزج بين الأناقة والبوهيمية .
له من توقد الذهن شعلة تجمع بين الجنون والجازبية ، قلما شوهد
أروع منها على شفتى فتى . أليس يخرج من مراهقته مصقولاً
بالتجارب والشقاء ؟ أفلا يعطينا هو نفسه لمحات منها في
قصته « قضية كلنصو » ؟ .. والأسباب جلية ، فإن أباه الكاتب
الأشهر « دوماس الكبير » لم يتزوج أمه « كاترين لابي » العاملة
البسيطة ، وإن كان عاشرها زمناً لم تستطع فيه أن تمسك بتلابيب
زير النساء هذا المتنقل كالنحلة بين الزهور .. فهجر المرأة الشابة
بحجة وصول أمه إلى باريس ، بعد مولد بطل قصتنا بقليل ..
واستعانت كاترين على العيش بفتح دكان صغير يتجر بملابس
النساء الداخلية والتطريز .. وكانت مثلاً في خلقها وذوقها ..
قالت يوماً لطفلها : « يا بني إنه ليس لك أب ، ولكن هذا
لا يعنى أن أباك قدمات ، إنما معناه أن كثيراً من الناس
سيحتقرونك ويسبونك لمصاب كان أخلق أن يشير عطفهم

ويدعو إلى معوتهم . . ثم معناه أيضاً أنه لا ينبغي لك الاعتماد
إلا على نفسك وعلى . وأنا لسوء الطالع لن أشتغل دائماً . .
وكذلك معناه أن أى حزن تسببه لى فإنى مرغمة على تحمله
وغفرانه . . فبالله لا تكن فى ذلك من المرفين ! . . . »

ولكن الولد لم يسرف فى إغضاب أمه ، بل على الضد بذل
جهده فى أن يرحمها ويجنبها سماع الصدمات التى عاناها من
رفاق مدرسته ، فقد ظلوا نحو ست سنين يسبون من الصباح
إلى المساء ، ويتضارب معهم ، دون أن يشير بحرف إلى أمه .
وكان يموت من ذلك كل يوم . ولم يكن ينمو كغيره من الصبيان ،
لأن الحزن كان يشله فيزداد كل يوم هزالاً . ولم يعد يتذوق درساً
ولا لعباً . وبعد ما غادر المدرسة إلى الكلية نما عقلاً وبدناً . ولكن
نفسه ظلت مطبوعة طول حياته بطابع تلك الآلام الظالمة .
وفى ذلك الحين كان أبوه يتخذ العشيقات ويبدلهن . . ثم
انتهم فرصة نجاح روايته « هنرى الثالث » ، التى ربح منها نحو
ثلاثة آلاف جنيه ، وحصوله على وظيفة أدبية عند دوق أورليان ،
فاعترف بابنه ، وأسكنه وأمّه شقة بحى « باسى » .

لحما لأول مرة فى ميدان « البورص » تصعد « فيتونها »

على باب محلات « سوز » . . وكانت في ثوب من المسلمين
المهفوف ، وعلى كتفها مربعة من حرير الهند مطرزة بخيوط
وزهور من ذهب ، وعلى رأسها قبعة من قش إيطاليا ، وفي يدها
سوار وحيد متخذ من سلسلة ذهبية غليظة كان قد بدأ يشيع . .
فبهت من حسننها . . وسأل غلامًا من خدم المحل واقفًا
بالباب ، فأجابه :

— إنها الأنسة ماري دوبلسي !

فلم يجرؤ على سؤاله عن عنوانها . وبعد ذلك كان مع
صديقه « أوجين دجازيه » ابن الممثلة المشهورة (وهو في القصة
يطلق عليه « جاستون ») بمسرح القاريتيه ، فرأى فاتنة لبه
مشرقة من « لوجها » ، تنعم على الدنيا بالنظرة والابتسامة ، وفي
يدها طاقة من « الكاميليا » ، التي لم تكن قد هانت كما هانت
اليوم ، لأن زهرتها المفردة التي تباع الآن بنصف قرش ،
كانت تساوى وقتئذ ريالاً . . .

وكانت تستبدل الكاميليا البيضاء بالكاميليا الحمراء ثلاثة
أيام في الشهر . . . وهيئات أن تصف الكلمات ما في ذلك
من الذكاء . . . وهو مفهوم من كل من يحب النساء . .

وفى تلك الليلة نفسها تعرف بها ، وتمكن مع صديقه
دجازيه على يد كليمانس من العشاء عندها . وكانت ، عندما
وصلوا ، بعد نصف الليل ، تعزف على البيانو ، وهى فى
« روب دى شامبر » من حرير لويس الخامس عشر ، فما إن
رآها دوماس حتى جن جنونه .. انظر أثر ذلك فى قصته :
« .. كان جليلاً أنها ما زالت فى بكورة الخطيئة .. وكانت
فى خطواتها الثابتة ، وغصنها المياس ، ومنشقيها المتفتحين بلون
الورد ، وعينيها النجلاوين تحيط بهما هالة رقيقة زرقاء .. تبوح
بسر طبيعة جامحة النزعات والرغبات ، تنضح فيما حولها بعطر
الشهوات ، كأنها قنينة من قناني الشرق التى مهما أحكم
سدادها يتصاعد عقب رحيقها المختوم ... »

« وقصارى القول أنه كان يتجلى فى تلك الفتاة : العذراء التى
جعلها اليسير محظية ، والمحظية التى كان اليسير كفيلاً بأن يردّها
عذراء ، أشد ما تكون حباً وطهرًا .. »

وكانت ، عند ما دخلوا ، تعزف على البيانو ، وإلى جانب
المصطفى وقف شاب وجيه وسيم ... فتوقفت ، فرجاها
أوجين دجازيه أن تمضى فى عزفها .. فألقت بنفسها على
الكنبة .. وقالت :

— أنت تمزح ... والموسيقى حسبي عندما أكون وحدي
مع « الكونت » ... ولكنني لا أريد أن أقضى عليكم بمثل
هذا العقاب ! ..

فابتسم الكونت الشاب وقال ، مسروراً :

— شكرًا لك يا صديقتي العزيزة .

فأجابت ، وكأنها نسيته لترحب بالزوار الجدد .

— العفو ، العفو !

وبعد هنيئة ، استأذن الفتى المسكين :

— أرجو المعذرة فقد آن ذهابي إلى النادي .

فلم تحر ماري جوابًا . فتقدم نحوها :

— أستودعك الله يا سيدتي .

— أسرعان ما تنصرف ؟

— أخشى أن أثقل عليك .

— آه ! .. لن تثقل اليوم أكثر من كل الأيام !

وما كاد ينصرف ، حتى راحت كليمانس تلوم الفتاة :

— إنك لا تعرفين يا ماري ما تفعلين مع مثل هذا الرجل

الريق ! .. انظري هذه التحفة الثمينة التي وهبك ...

إنها تقدر بالألوف !

— يجوز . . . ولو وضعت ما يعطينيه في كفة ، وما يقوله
لى فى الكفة الأخرى ، لألفيتنى أمنحه زيارتى بـشمن بخس . .
وأنى معه لمن الخاسرين ! . .

— إن حبه لك لا يخفى .

— لو أن على أن أستجيب لكل محب لما وجدت وقتاً
لطعامى . . . والآن ما رأيكم فى عشاء حى نخلص فيه من
حديث الكونت الممل ؟

هذا هو الكونت الذى غمرها بالهدايا النفيسة ، وأرسل لها ،
قبل أن يتعرف إليها ، قبيل عيد ميلادها بقليل ، صندوقاً فيه
اثنتا عشرة برتقالة من أمتع الأنواع ، وكل برتقالة ملفوفة فى
ورقة مالية من ذات الـ ١٠٠٠ فرنك ذهباً ! . . . ومعها بطاقة
بيضاء ليس فيها غير هذه الكلمات : « تحية للسيدة مارى
دوبلسى » . . وظلت مارى تجهل المرسل تماماً ، حتى جاءها يوم
عيد ميلادها ، فى ١٦ يناير ، غلام يحمل حلية ثمينة من الأحجار
الكريمة ، ومعها خطاب يعلن فيه حضوره الغداة ليقدم تحياته .
وجاء الكونت . . فلم يغز القلب الحصين الذى امتنع عليه
وصده ، برغم هداياه الثمينة . . فقد تبينت مارى للحال خشونة
طبعه وابتذال أساليبه . . حتى حدث ذات ليلة أن كان وإياها فى

في مقصورة بالأوبرا يحضران تمثيل « الهوجنوت » ، فجعل في فترة الاستراحة يقهقه بصوت مرتفع لفت جميع النظارة نحوهما .. فنهضت ماري من فورها ، وقالت إنها ستعود بعد قليل .. ولم تعد أبداً ...

ونعود إلى العشاء الحافل ، بين الموعودين بحب سيصبح مضرب الأمثال .. ثم نوبة السعال الحادة التي انتابت ماري وجعلتها تغادر المائدة لتجلس نفسها في مخدعها ، ثم نهوض دوماس الصغير بعد لحظات في أثرها .. بينا كوؤوس الشمبانيا مترعة ، والهوس باللذات قد بلغ مداه ..

لم يدم حبهما إلا بضعة أشهر .. ولكن متى كان الزمن في الحب حساب ! ؟ متى كان الهناء يقيم ولا يرحل ويعد هناء ؟ أليست حكمة الهناء تقضى بأن نبادر إلى التزود منه ، غير ناظرين إلى الشقاء الذي يتربص بنا ليجرى في أعقابنا ؟ ! أو لم يصدق « هوراس » في نصحه إيانا أن نقطف اليوم الذي يأتي دون أن نشغل بالنا بالغد الداني القطوف ؟ !

لقد كان حباً عنيفاً ثائراً . كأنه انتقام من الدهر .. بل كأنه انتقام لمئات الألوف من القلوب الكسيرة والنفوس المحترقة

المنبثة في أنحاء الأرض .. كأنه استهتار بالقدر نفسه وسطوته ،
بل كأنه ... كأنه الاتتجار ، والرخص في وادي المنون ! .

يبد أن الغانية لا تعيش على ضياعها الواسعة أو ثروتها
الطائلة .. والاشتراك في عشرة امرأة كهذه له تكاليفه .. خبيب
القلب كان يدخل من باب الخدم ، في الوقت الذي يدخل فيه
الكونت حبيب الجيب من باب السادة .. ولم يكن دوماس
الصغير يستقبل لديها إلا بعد منتصف الليل ، على أن يغادر الدار
في الفجر .. وذلك مراعاة للدوق الشيخ الهرم الذي لا ينكر كرمه ،
وللكونت المتيم الثقيل الذي لا ينكر بذخه .

ولقد عرف دوماس الاعتذارات التي كانت تسرف فيها
ماري خلال وجوده عندها .. فجاءته يوماً منها هذه الكلمة :

« يا بني الحبيب .. اني أشكو قليلاً ، وقد أمرني الطبيب
بالراحة ، سأنام هذا المساء مبكرة فها أراك . ولكنني أعوض
عباك ، فأنتظرك غداً ظهراً .. اني أمبك » « ماري »

فكان أول ما خطر له : « إنها تخدعني » . وراح إلى
الشانزليزيه ، وظل صابراً على نار أربع ساعات متواصلة . فلم
يظهر لها أثر . ولم يدع في ذاك المساء مسرحاً أو مرقصاً تعودت
التردد عليه دون أن يلججه .. ولكن بغير طائل . وفي الساعة

الحادية عشرة مساء قصد بيتها ، ومعها مفتاحه الخلفى الذى كانت أعطته له برهاناً على حبها .. فاعترضه البواب قائلاً : « إن السيدة لم تعد بعد » .

فخرج دوماس غضبان أسفاً، وظل يتمشى على الرصيف المقابل لروحة وجيئة والضجر يقتله. حتى إذا انتصف الليل أقبلت مركبة مقفلة ، ووقفت ، فنزلت منها مارى وأحد أصحابها ، فدفع للحوذى أجره ، ودخلا ، ودوماس على الرصيف ، حتى الساعة الرابعة صباحاً . فعاد يائساً باكياً إلى بيته . وعند الظهر كان أمام مارى يناقشها الحساب . ففسرت له ما استطاعت من ظروف الحال ..

وكان قد ضعف لمجرد مرآها شائقة مؤاتية ، وتلاشى غضبه ، وتقبل سلفاً الأكاذيب على أنها حقائق .. وهاهى ذى قد ابتدرته بعهد جديد للعطف والحنان ، فقبلت الخروج معه للعشاء ، وارتضت الظهور معه فى مقصورتها بالمسرح .. فى اليوم التالى .

وعند خروجهما بعد السهرة ذهباً لتناول السجور .. ولم ينصرف من لديها إلا عند الظهر ، بعد ليلة غراميات جنونية ، سكرافيا سكر هوى قاتل .

وكانت تلك ذروة عاطفتها وأقصى ما بلغه حبهما . ولم
يفترقا من بعد ، بل ظلّا يراكم الحماقات ، ولا يكثران
بالظروف ، ويستهران بالذين كانوا يدفعون ثمن ذلك الترف كله
ولا ينالهم من الحب قطرة .

وكانت ماري ، إذا طاب الجو ، وحان الأصيل ، تلتف في
كشميرها الجميل ، وتنزل مستندة إلى ذراع حبيبها المفتون ،
يتمشيان في ملتويات الشانزليزية التي تظللها الأشجار الخنون ،
فتجعل منها خمائل للبت والنجوى .

وكان الناس يرونهما معا في كل مكان ، حتى أصبحا حديث
باريس ، وكانا ، حين يراها الناس ، يفرج كلاهما عن صاحبه ،
ويرحمه من ذلك البهران الشهواني ، الكفيل ، في وقت
قصير ، بأن يدع الجسم كالجنة الهامدة ، والقلب كورقة
الخريف الذابلة . .

وكان يستحيل على تلك الفتاة المصدورة ، الرقيقة ، النحيلة ،
أن تتحمل كل هذا الحب العنيف ، الذي كان يفنيها ويقتلها في
اليوم مرات .



وألح عليها المرض ، وألح عليها الدائنون ، وظلت صاحبها

كليمانس تغريها.. وتقول لها، إنها تضيع على دوماس مستقبلة..
وفي القصة نجد الأب يتوسل إليها أن تتخلى عن ولده، حتى
تستطيع أخته أن تتزوج.. ولكن في الحقيقة أن الأب دوماس
الكبير كان جد نفور بهذا الغرام.

ولم يكن دوماس الصغير ينفق عليها من حُرِّ ماله إلا القليل،
لأنه لم يكن غنياً. ولم تكن هي تطلب منه كثيراً ولا قليلاً..
ولكن لما كانت النساء اللواتي لا يقبلن مالا هن عادةً أغلى
النساء، فقد كان قتانا يزداد كل يوم تورطاً. وهو الآن مدين
بخمسين ألف فرنك، أي بنحو الألف جنيه. بل لقد اضطر
أحياناً إلى أن يلجأ إلى القمار ليربح نفقات خروجهما، أو ثمن
عشاءهما.. ولو أنه كان بليد الإحساس أو بغير ضمير، لما اكرث،
كما يفعل كثيرون، ممن يتركون عشيقاتهم ينفقن عليهم..
وأدرك أن صاحبتة تضحى من أجله بمستقبلها، وأنه من
الجانب الآخر لا يستطيع أن يكفله لها. وهذا هو السر في
خطاب القطيعة الذي أرسله إليها في منتصف ليل ٣٠ أغسطس
سنة ١٨٤٥ :

« عزيزتي ماري

« لست من وفرة الفنى بحبب أميك على ما أشتهى، ولست من

سيرة الفقر بحيث أرضى بحب على مشتهاك .. فلمتناسى ازده جميعاً ..
تناسى اسماً كان لا شك قليل الأثر عندك .. ولأتناسى ههنا
هرم على .

« عجباً أقول لك كم أنا حزين صدمت تعلمين مبلغ هي ..
وداعاً ازده ! ... انه لك قلباً أكبر من أن يفهم سبب قطابى ،
وانه لك عقل أكبر من أن يفكر لى .. »

« ألوف الذكريات ... » « ١ . د »

وكان داء الصدر فى تلك الأثناء يدب فى جسمها ديباً خفياً
تارة ، وجلياً تارة أخرى .. وكأنى بغادة السكامليليا تعاند الموت ،
ولكنها تشعر بأن سهمه قد أصابها فى الصميم .. وكان كل
من يلمحها يحكم بذلك .

راها بول دى سان فيكتور ذات مساء فى حفلة راقصة ،
وانزعج أشد الانزعاج ، فكتب :

« إن بشرتها الناصعة المثلى قد ذابت ، كما يذوب الثلج ،
بنار الحى ... وكان اللهب الخافى يلعب بألسنته الأخيرة على
وجنتها الداكنتين ... ولقد خبت عيناها النجلوان وزادت
عمقاً ، وجعلتا ، شيئاً فشيئاً ، تحت جفניה ، تنطفئان ... »

وبدأ الدائنون يقلقون وينذرون ويقتحمون دارها بلا
استئذان .. وكانت مدينة لكل إنسان ، حتى بواب بيتها
« بريقيه » كان يدينها بـ ٢٣٥ فرنكا ! ... ويصبر عليها
خادماها بأجرتهما . ورهنت كل ما كان عندها . وأخذت نقوداً
بالسيئة بأرباح أضعافها . ولم تكن قادرة على النزول عن
مستوى معيشتها الفاخرة ، لأن ذلك الترف كان مصدر رزقها .
« لم تعد امرأة ، بل ظل امرأة .. شئ أبيض شفاف ،
عظم وثوب . »

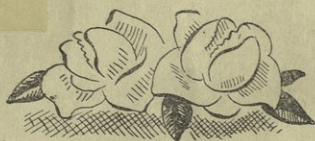
لقد أفل نجمها وباريس في إبان أعيادها . فقد كانت أعياد
الكرنفال تملأ الطرقات بالفرح والمرح والضجيج ، بينما غانية
باريس « غادة الكاميليا » تقضى نجمها ، وليس إلى جانبها من
كل المحبين إنسان يسندها في احتضارها ، إلا خادمتها
المخلصة الأمانة ..

وفي ٣ فبراير ، يوم الأربعاء ، صعدت روحها إلى بارئها ،
فكتب يؤبنها « توفيل جوتيه » الروائي النابه في جريدة
« لا بريس » :

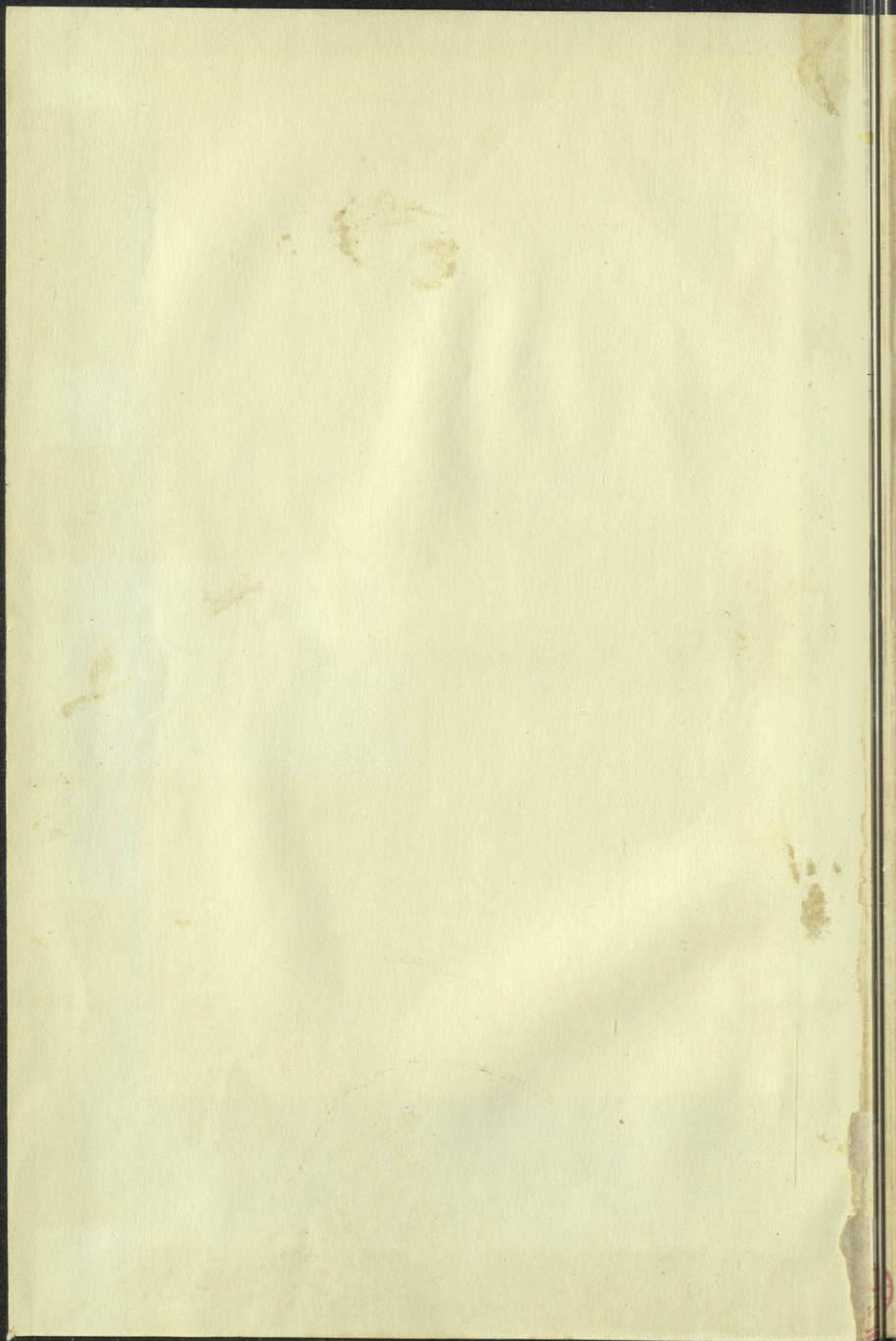
« لقد ظلت ثلاثة أيام سويا واقفة ، وهي شاعرة بوقوفها ،
على شفا ذلك الجرف الهاري ، الذي سوف تتردى فيه جميعاً .. »

وظلت ممسكة بيد ممرضتها لا تتركها طرفة عين ..
«ولكنها تركتها عندما أقبل ملك الموت يلح عليها
ويتعجلها الرحيل ، ويحملها على رغمها .. وفي آخر مجهود
لشبابها إزاء فنائها انتصبت بقوة في فراشها ، طلباً للغوث ..
ثم صرخت ثلاث صرخات ، وسقطت إلى الأبد .. في
أكفانها ... »

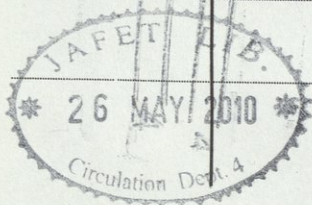
وكان لها من العمر ثلاثة وعشرون ربيعاً .



1942/11/29.1



JAFET L.B.		
* 26 MAY 2010 *		
Circulation Dept. 4		



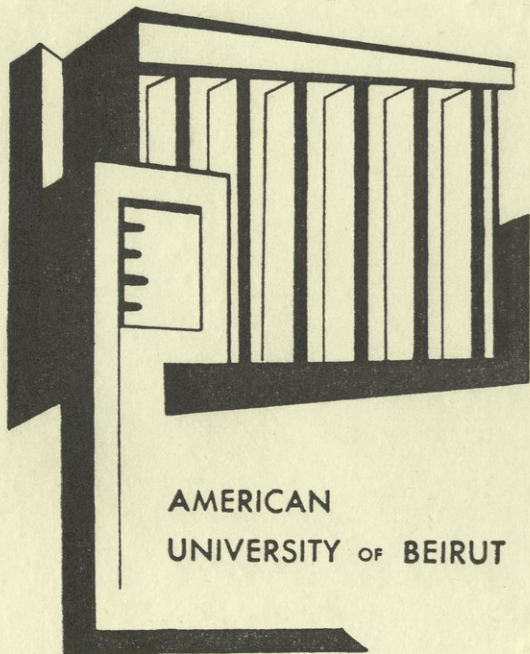
843.08:M95gA:c.1

محمد، احمد الصاوى
غانيات

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01032180



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

